البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية في بلاد الشام

(سورية وفلسطين)

١٨٤٠ـ١٩١٤م

الدكتور حبيب محمود صالح

قسم التاريخ ــ جامعة دمشق

البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية في بلاد الشام

(سورية وفلسطين) ١٨٤٠ـ١٩١٤م

تشير بعض الدراسات التاريخية إلى أن اهتمام روسية القيصرية بمسألة الأماكن المقدسة في فلسطين، يعود إلى فترة تبنيها للعقيدة المسيحية. غير أن آراء معظم المؤرخين تجمع على أن الأرض المقدسة (فلسطين) كانت بالنسبة لروسية والشعب الروسي قبل القرن التاسع عشر بلاداً بعيدةً، والطريق إليها شاقةٌ وصعبة، وزيارتها مكلفة للغاية، واقتصر الحج إليها على بعض المؤمنين الميسورين من أبناء المجتمع الروسي، حتى أن السلطة الروحية الروسية (البطركية الأرثوذكسية الروسية) لم تتخذ أية إجراءات عملية من أجل إنشاء علاقات، وروابط مع الأرض المقدسة، وإيجاد نوع من الوجود الروحي الروسي فيها، أوحتى التفكير بافتتاح ممثلية للكنيسة الأرثوذكسية الروسية في بيت المقدس تتولى حماية الأرثوذكس، والأرثوذكسية في فلسطين أوعلى الأقل تتولى رعاية الحجاج الروس فيها.

خلال الربع الثاني من القرن التاسع عشر، أصبحت المسألة الشرقية إحدى أهم وأخطر القضايا الدولية العالقة في العلاقات الدولية بين الدول العظمى، وكان السبب الشكلي أوالظاهري للصراع بين الدول الأوروبية العظمى آنذاك هوالاختلاف بين الأرثوذكسية، والكاثوليك على حق امتلاك مفاتيح كنيسة المهد في بيت لحم، وإصلاح قبتّها، في الوقت الذي كان فيه السبب الحقيقي للخلاف هو لمن ستكون منطقة الشرق العربي في المستقبل؟

وراحت روسية القيصرية تسعى للدفاع عن مصالحها وتطلعاتها وأهدافها في هذه المنطقة عن طريق تبني مسألة ما أصبح يُعرف باسم رعاية الحجاج الروس في

الأرض المقدسة فلسطين، والتي بدأت تطرحها بشكل عملي منذ الربع الثاني من القرن التاسع عشر، وكانت تلح دائماً على إيجاد حل مناسب لها.

لا بدّ من الإشارة هنا، إلى حقيقة أن العلاقات الروسية مع العرب والتي تعود إلى القرن العاشر الميلادي.(١) كانت منذ بداياتها الأولى علاقات وديّة وطيّبة، وقامت على مبدأ الاحترام المتبادل، وشهدت منذ ذلك التاريخ تطوراً مستمراً. غير أن الأحداث السياسية التي وقعت في بلاد الشام، والموقف الروسي أثناء فتح محمد علي باشا لها (١٨٣١ – ١٨٤٠)م، والدور الذي لعبته الدبلوماسية الروسية في مؤتمر لندن، وتسوية ١٨٤٠ – ١٨٤١ م. أساءت إلى هذه العلاقة إلى حدٍّ كبير، ولطّخت سمعة روسية، وأفقدتها بريقها لدى العرب، وانتزعت من يد روسية حلّ مجموعة من المسائل العالقة في المنطقة العربية، وجعلتها في المرتبة الخامسة والأخيرة وسط الدول العظمى وفسحت مجالاً واسعاً، وفتحت أبواباً عريضة للدعاية الكاثوليكية، والبروتستانتية المعادية للأرثوذكسية في بلاد الشام وبخاصة في قسمها الجنوبي (فلسطين) (٢).

كما مُنيت روسية القيصرية بخسارة أخرى وقعت أثناء انعقاد اجتماع لندن، تمثلت في حرمانها من الامتيازات التي مُنحت لها بموجب (اتفاقية هنكار اسكله سي) التي كانت قد وقّعت عليها مع الدولة العثمانية عام ١٨٣٣ م، ومنحتها حق حماية الأرثوذكس داخل الدولة العثمانية، وأعطت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية مكانة رفيعة المستوى في الأرض المقدسة فلسطين (٣).

١ـ البدايات الأولى لنشاط البعثات التبشيرية الروسية في جنوب بلاد الشام (فلسطين):

منذ بداية أربعينات القرن التاسع عشر، بدأت روسية القيصرية تهتم بإرسال بعثاتها التبشيرية الأرثوذكسية إلى فلسطين، بعد أن كانت قد سبقتها إلى هناك البعثات التبشيرية البروتستانتية والكاثوليكية، والتي بدأت بالظهور فيها مع مطلع عشرينات

القرن التاسع عشر. وبدأ المبشرون الروس بشراء الأراضي، وتشييد الأبنية الروسية عليها، (مساكن للحجاج الأرثوذكس، مستشفيات، أديرة، كنائس) وترافق هذا العمل مع وصول ثلاث بعثات تبشيرية روسية منظمة إلى فلسطين، وضعت لنفسها هدف دراسة الأوضاع العامة فيها، وتقديم الدعم اللازم من أجل زيادة نفوذ الكنيسة الروسية في الأرض المقدسة، والوقوف في وجه الدعاية البروتستانتية، والكاثوليكية، المعادية للأرثوذكس فيها.

في عام ١٨٤٣ م، أرسلت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية المطران بارفيري أوسبينسكي بمهمة سرية إلى بيت المقدس تحت ستار أداء فريضة الحج، تتعلق بعمل الكنيسة الأرثوذكسية الروسية في بيت المقدس. وفي مطلع عام ١٨٤٧ م، وبعد ثلاثة أعوام قضاها متجولاً في بلاد الشام، أرسل بارفيري تقريراً مفصلاً إلى البطركية الروسية الأرثوذكسية، طلب فيه إرسال بعثة روحية روسية دائمة إلى بيت المقدس، تتولى خدمة المصالح الروسية في بلاد الشام، والدفاع عن حقوق الحجاج الروس، والإشراف على كافة الكنائس والأديرة الأرثوذكسية في الأرض المقدسة فلسطين.

في ١٧ شباط ١٨٤٧ م، وبناءً على الاقتراح الذي تقدم به بارفيري، وصل أعضاء البعثة الروحية الأرثوذكسية الروسية التي شكلتها البطركية الروسية إلى بيت المقدس، وأوكلت رئاستها إلى المطران بارفيري نفسه، ودخل في عضويتها الراهب غوفاروف، والتلميذان كريلوف، وصيلافيوف. وفي عام ١٨٤٨ م، نقل المطران بارفيري إلى البطركية الأرثوذكسية الروسية اقتراحاً تقدم به الرحالان الروسيان نورف، وموراﻓﻴﻮف، خلال زيارتهما للأرض المقدسة فلسطين ينص على إنشاء مجلس عموم روسية غير الحكومي، لدعم الأرثوذكس، والأرثوذكسية في بلاد الشام، غير أن الفكرة أُجِّلت بعد مناقشات مطوّلة إلى وقت لاحق. وفي نفس الوقت باشرت البعثة الروحية الروسية، ممارسة نشاطاتها في بلاد الشام، وأقامت عام ١٨٥٢ م، داراً للطباعة في بيت المقدس، لإصدار الكتب الدينية الأرثوذكسية باللغتين العربية،

واليونانية. وتزويد المدارس الأرثوذكسية التي فتحتها البعثات التبشيرية الروسية بالكتب الدراسية العربية.

لا بد من الإشارة هنا إلى أنه، ومع مطلع خمسينات القرن التاسع عشر، أخذت المسألة الشرقية أبعاداً خطيرة جداً على مستوى السياسات التي كانت سائدة بين الدول العظمى آنذاك، وبدأت هذه الدول تعيش صراعاً دبلوماسياً بينها، لا يمكن لأحد أن يتنبأ بنتائجه. وقد وصف كارل ماركس المسألة الشرقية في تلك المرحلة قائلاً: " لقد وصلت على ما يبدوإلى درجة فقد فيها الدبلوماسيين قدرتهم على السيطرة عليها، ولم يعد باستطاعتهم استخدامها لخدمة مصالحهم وأهدافهم، أوحتى مجرد وقف تدهور الأحداث " (٣).

وأخذت التطورات والأحداث اتجاهاً معاكساً لما كانت ترغب به روسية القيصرية، وحسمت مسألة الخلاف بين الكنيسة الأرثوذكسية الروسية، والكنيسة الكاثوليكية الفرنسية، لصالح الأخيرة ودخلت روسية في حرب مع الدولة العثمانية (حرب القرم ١٨٥٣ – ١٨٥٦ م)، وانتهت بهزيمتها. وانشغلت خلالها عن مسألة الاهتمام بالأملكن المقدسة، وبعثاتها التبشيرية في فلسطين، وأصبحت دبلوماسيتها في الشرق في وضع محرج للغاية، وفي سبيل الحفاظ على الممتلكات الروسية في الأرض المقدسة فلسطين خلال الحرب، قامت الحكومة القيصرية الروسية بإنشاء المجلس الفلسطيني التابع لوزارة الخارجية وأوكلت إليه مهمة الاهتمام بإعادة إحياء العلاقات الروسية مع العرب. ومنذ ذلك التاريخ وضعت الدبلوماسية الروسية أسس المرحلة الأولى من تاريخ التبشير الروسي في بلاد الشام. وفي ظل هذه الأوضاع، حاولت الحكومة الروسية إيجاد مخرج لها، وإعادة دورها الدبلوماسي إلى المنطقة، عن طريق الاهتمام هذه المرة بما أسمته رعاية وحماية الحجاج الروس الأرثوذكس في فلسطين، بعدما أصبحت هذه الحجة المعبر الوحيد الذي يمكن منه للدبلوماسية الروسية العبور إلى المنطقة. وعادت البعثة الروحية الروسية إلى بيت المقدس، بعد انتهاء حرب القرم عام

١٨٥٦ م برئاسة المطران بارفيري أوسبينسكي نفسه. ولكن البعثة لاقت صعوبات كبيرة جداً في إعادة ممارسة نشاطاتها في فلسطين، خلال تلك الفترة نظراً لتوسع الدعاية الكاثوليكية والبروتستانتية، المعادية للأرثوذكسية طيلة سنوات حرب القرم الثلاثة، على يد (أخوات رحمة السيد المسيح). و(أخوات النبي يوسف) الخ....

غير أن الحكومة الروسية كانت مصممة على إعادة اعتبارها في الشرق، وكرّست جهودها بالتنسيق مع الكنيسة الأرثوذكسية الروسية، وأمرت في عام ١٨٥٦ م بتأسيس اللجنة البحرية الروسية وافتتحت في العام التالي وكالة الجمعية الروسية للتجارة والنقل البحري في بيت المقدس، في حين راحت البعثة الروحية الروسية، بالتنسيق مع البعثات التبشيرية الروسية، توسّع من دائرة نشاطاتها في فلسطين، وتمكن المطران بارفيري أوسبينسكي من الحصول على مجموعات كبيرة من الكتب والمخطوطات القيّمة، مكتوبة باللغات العربية، واليونانية, والأثيوبية، والكروزينية، والسلافية، ولغات أخرى وإرسالها إلى روسية، حيث وضعت في أكاديمية العلوم الروسية، والمكتبة القيصرية للعلوم الإنسانية، في " سانكت بطرس بورغ ". كما بعث بارفيري بمجموعة قيّمة من الأيقونات إلى مدينة كييف، كان قد جمعها من الكنائس والأديرة المنتشرة في أنحاء بلاد الشام.

في عام ١٨٥٧ م، ازداد عدد المبشرين الأرثوذكس الروس ووصل إلى ٨٠٠ مبشراً، كما ازداد عدد الحجاج إلى حدٍ كبير، نظراً لافتتاح خط ملاحة بحري بين ميناء أوديسا على البحر الأسود، وميناء حيفا في فلسطين على البحر المتوسط. وفي عام ١٨٥٨ م أعادت روسية فتح قنصليتها في القدس، كما تم إنشاء قسم جديد في وزارة الخارجية الروسية، أصبح يعرف باسم (قسم فلسطين)، أوكلت إليه مهمة البحث عن مصادر تمويل جديدة، وتوظيفها في توسيع ودعم النفوذ السياسي والديني لروسية في بلاد الشام، وزيادة تفعيل الدور الروسي في الأرض المقدسة فلسطين على وجه الخصوص. وكانت الكنائس الروسية قد تمكنت بعد انتهاء حرب القرم وعودة البعثة

الروحية الروسية من جمع أكثر من مليون روبل، حوّلت عن طريق المجلس الفلسطيني الجديد، الذي أُسس في بطرس بورغ إلى البعثة الروحية الروسية في فلسطين من اجل شراء الأراضي اللازمة لإقامة أبنية لاستقبال الحجاج.

وفي عام ١٨٥٩ م، تم شراء الأراضي الواقعة بين بوابة دمشق، وساحة الميدان، في بيت المقدس والتي تعرف الآن بالساحة الروسية، حيث تمكن رئيس المجلس الفلسطيني قسطنطين نيكولايفتش من تسجيل هذه الأرض باسم البعثة التبشيرية الروسية في فلسطين. وفي عام ١٨٦٠ م بدأت البعثة ببناء دير القديسة الكساندرا، ودير القديسين الثلاثة، وبناء مكون من طابقين للبعثة التبشيرية الروسية، وبيوت أخرى للمبشرين والحجاج.

في عام ١٨٦٣ – ١٨٦٥ م تولى الأرخيماندريد ليونيد (كافلين) مهمة رئاسة البعثة التبشيرية الروسية وأشرف على بناء كاتدرائية مقابل بوابة يافا ودير للرهبان وأربعة بنايات أخرى في حيفا والرملة والناصرة.

وفي عام ١٨٦٤ م وبدعم من القيصر الروسي الكساندر الثاني مباشرة، تم إنشاء اللجنة الفلسطينية في وزارة الخارجية الروسية عوضاً عن المجلس الفلسطيني، وبدأت اللجنة الفلسطينية ممارسة نشاطاتها بالتنسيق مع وزارة الخارجية الروسية لزيادة وتفعيل النفوذ الروسي في بلاد الشام بالشكل الذي يضمن المصالح والتطلعات والأهداف الروسية. وبالتالي فقد تابعت اللجنة الفلسطينية مهمة شراء الأراضي وبناء الكنائس والأديرة والمستشفيات والمدارس، ودراسة تاريخ فلسطين والمناطق المحيطة بها، وخلال هذه الفترة بالذات تمكنت البعثات الروسية من امتلاك مساحات كبيرة من الأراضي في مختلف المدن والقرى المقدسة في فلسطين وعلى مقربة من بيت لحم.

في قرية بيت جالا تمّ بناء مدرسة للبنات ومستوصف وبناء خاص للبعثة الروحية نفسها ورئيسها الأرخيماندريد أنطونين، الذي تسلم رئاسة البعثة بعد كافلين. كما تم

شراء قطعة من الأرض في جبل الزيت على مقربة من بيت المقدس، ومساحات أخرى قرب الناصرة ويريهون وأراضٍ في بلدات المنطقة.

في عام ١٨٧١ م، قام فاسيلي نيكولايفتش خيترافو الذي كان يشغل منصباً رفيع المستوى في وزارة البحرية الروسية، ثم في وزارة المالية في سانكت بطرس بورغ، بزيارة الأرض المقدسة فلسطين اطلع خلالها على الظروف والأحوال التي كانت تعيشها الطائفة الأرثوذكسية، وما تعانيه من ضغوط قوية من قبل البعثات التبشيرية الكاثوليكية والبروتستانتية، والدعاية الكبيرة المعادية للأرثوذكسية التي تقوم بها هذه البعثات ضد العقيدة الأرثوذكسية، فقرر أن يقوم بنفسه بإيجاد الطرائق والوسائل الكفيلة بإنقاذ الطائفة الأرثوذكسية وتخليصها من الأوضاع المؤلمة التي تعيش فيها.

نقل خيترافوانطباعاته عن هذه الأوضاع إلى الأرخيماندريد أنطونين وبعد ذلك إلى الأرخيماندريد ليونيد المعروف باسم كافلين. لكنه فوجئ وبشكل غير متوقع بنوع من التحفظ وعدم الثقة، لأن الواقع آنذاك لم يكن في الحقيقة يخدم الأهداف والتطلعات الروسية في الشرق. وكل ما فعله كافلين أنه قدم له النصيحة التالية: " لابد من أجل تصحيح أوضاع الحجاج في فلسطين والطائفة الأرثوذكسية في الشرق من ممارسة الضغوط الكبيرة على المسؤولين في بطرس بورغ ".(٤)

من ناحية أخرى، ساعدت المتغيرات الدولية في مطلع سبعينات القرن التاسع عشر، وتحسن وضع الدبلوماسية الروسية في الساحة الدولية، البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية في بلاد الشام على زيادة نشاطاتها خصوصاً بعدما تمكنت روسية القيصرية من تغيير بنود اتفاقية باريس التي وقعت عليها بعد هزيمتها في حرب القرم عام ١٨٥٦ م، وسمح لها اجتماع لندن عام ١٨٧١ م بامتلاك أسطول بحري عسكري وقواعد عسكرية بحرية على شواطئ البحر الأسود. الأمر الذي لم يؤد فقط إلى زيادة وتقوية وضمان أمن الحدود الروسية الجنوبية، بل وكذلك زاد من

إمكانية توجهها نحو بلاد الشام عن طريق البحر. وفي هذه الفترة بالذات بدأ الانبعاث الحقيقي لليقظة العربية، وظهرت حركة التحرر القومية العربية وراحت تمارس نشاطاتها على كافة الأصعدة والمستويات، وشكّلت الجمعيات السرية التي وضعت لنفسها هدف إعداد العرب، والنضال من أجل التخلص من نير الاحتلال العثماني البغيض، في وقت أخذت فيه الثورات تتفجر في دويلات البلقان ضد الحكم العثماني، والتي دفعت روسية القيصرية إلى الدخول في حرب جديدة مع الدولة العثمانية (١٨٧٧- ١٨٧٨ م) انتهت بالتوقيع على معاهدة سان استيفانو واستقلال دويلات البلقان المتحالفة مع روسية. وكان على الدولة العثمانية أن تقوم بجملة من الإصلاحات والتغيرات في الولايات المسيحية التابعة لها. كما اعترفت الدولة العثمانية فيها بحق روسية في الدفاع عن الطائفة الأرثوذكسية في الأرض المقدسة فلسطين [٥].

وقبيل انعقاد مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ م تمكنت روسية القيصرية في ٣١ أيار ١٨٧٨ م من عقد اتفاقية سرية مع انكلترة اعترفت فيها لروسية بالسيطرة على باطومي، وبذلك ازداد الموقف الروسي من الدولة العثمانية قوّة، وأعطى الدبلوماسية الروسية دفعاً جديداً لزيادة نشاطاتها في الولايات العثمانية. وطبيعي أن ينعكس ذلك بشكل إيجابي على وضع البعثات التبشيرية الروسية التي كانت تعمل آنذاك في بلاد الشام.

وحاولت روسية القيصرية استغلال الحركة القومية العربية لزيادة نفوذها أكثر فأكثر في المنطقة وتقوية مراكز البعثات التبشيرية الأرثوذكسية بحجة توسيع نشاط ونطاق عمل حركة التنوير، فقامت لجنة الدفاع عن الحقوق القومية العربية بتوجيه نداء إلى الشعب العربي، رحّبت فيه باستقلال دويلات البلقان عن الدولة العثمانية ودعت العرب من مسلمين ومسيحيين إلى الوحدة والتكاتف، وإعداد أنفسهم للنضال المسلح ضد الاحتلال العثماني، ورفض القوميون العرب التأثير الوحيد الجانب من قبل روسية القيصرية في بلاد الشام، عن طريق بعثاتها التبشيرية، وأعلنوا عن استعدادهم

للتعاون البنّاء مع روسية، وتلقي المساعدات الروسية لتحقيق الأهداف العربية المعلنة في الحرية والاستقلال.

بالإضافة إلى التغيرات الكبيرة التي طرأت على السياسات الدولية، لصالح روسية بشكل عام خلال سبعينات القرن التاسع عشر، بدأ يزداد عدد الموالين للسياسة الروسية الناشطة في الشرق، والمدافعين عن الأرثوذكسية داخل هرم السلطة في سانكت بطرس بورغ. وفي عام ١٨٨٠ م تم تعيين المدعي الروسي العام بوبيدا نوستسيف رئيسا للسينود الروسي المقدس (المجمع المقدس).

وفي عام ١٨٨١ م، أصبح الكساندر الثالث* الذي سبق وأشرف بوبيدا نوستسيف على تربيته إمبراطوراً جديداً على روسية القيصرية. وبذلك أصبح نفوذ الكنيسة الأرثوذكسية الروسية يشمل حتى قمة هرم السلطة فيها، الأمر الذي أدى إلى دعم البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية في بلاد الشام كما سنرى لاحقاً.

في عام ١٨٨٠ م، قام خيترافوبزيارة أخرى للأرض المقدسة، تعرف خلالها بشكل أكبر على وضع الكنائس الأرثوذكسية المحلية، واطلع على ظروف وأوضاع الحجاج الروس الأرثوذكس، الأمر الذي دفعه إلى السعي بكل طاقاته لتأسيس جمعية تتولى الإشراف على الأماكن الأرثوذكسية المقدسة وحماية ورعاية الحجاج، وقرر بالاتفاق مع الأرخيماندريد أنطونين الذي كان يشغل منصب رئيس البعثة الروحية الروسية في فلسطين، والمعروف باسم كابوستين طرح هذه الفكرة على المسؤولين في بطرس بورغ بعد عودته إلى بطرس بورغ، في مطلع عام ١٨٨١ م، طرح خيترافوعلى وزارة الخارجية الروسية فكرة تحديد مجال صلاحيات القنصل والبعثة الروحية الروسية في القدس، وإنشاء جمعية تتولى الإشراف على الشؤون الدينية في الأرض المقدسة، فقررت الحكومة الروسية دراسة الفكرة، ومدى إمكانية تطبيقها [٦].

في أيار عام ١٨٨١ م، قام شقيقا الإمبراطور الروسي الكساندر الثالث، وهما

الكنياس سيرغي الكساندروفتش، وبافل الكساندروفتش، وبرفقتهما الكنياس قسطنطين قسطنطينوفتش بزيارة بيت المقدس، حيث أطلعوا وعلى أرض الواقع على وضع " الروس الفلسطينيين " ونشاط البعثات التبشيرية الكاثوليكية والبروتستانتية المعادية للأرثوذكسية فيها. وفور عودتهم إلى سانكت بطرس بورغ طرح عليهم خيترافوفكرة إنشاء جمعية روسية، تأخذ على عاتقها مسألة الإشراف التام على الشؤون الدينية الأرثوذكسية في الشرق، وتتولى رعاية وتوجيه وتمويل البعثات التبشيرية الروسية. وبالفعل فقد لقيت هذه الفكرة إعجاب شقيقي القيصر، اللذين طلبا من الحكومة القيصرية دراسة الفكرة واتخاذ الإجراءات اللازمة بخصوص ذلك.

٢- تأسيس الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية عام ١٨٨٢ م ودورها في زيادة نشاط البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية في بلاد الشام (سورية وفلسطين):

في مطلع عام ١٨٨٢ م، كلفت الحكومة القيصرية خيترافو، بتشكيل جمعية روسية خاصة، وإعداد برنامج خاص لها ووضع أسس نظامها الداخلي. وخلال عدة أشهر تمكن خيترافوبالاعتماد على برنامج كان قد وضعه بالتعاون مع الأرخيماندريد أنطونين أثناء زيارته الأخيرة للقدس، من وضع نظام وميثاق داخلي للجمعية التي أصبحت تعرف باسم الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية، أقرته الحكومة القيصرية في الثامن من آذار عام ١٨٨٢ م، ثم أُعلن عن تشكيلها في ٢١ أيار ١٨٨٢ م، وقد حصلت هذه الجمعية على حماية ورعاية بلاط القيصر الروسي، ودخل في عضويتها سبعة من أعضاء أسرة رامانوف القيصرية نفسها، وكذلك وجوه رسمية سياسية واجتماعية معروفة، بالإضافة إلى ممثلي السلطة الروحية الأرثوذكسية الروسية، ورحّالة وعلماء. (٧)

وقد تولى مهمة تنفيذ أعمال الجمعية والإشراف على نشاطاتها مجلس مكون من المدير العام الكنياس سيرغي الكساندروفتش (شقيق القيصر)، ونائبه الكاتب الروسي

المعروف فيليبوف، في حين عُين خيترافومساعداً لنائب المدير العام، بالإضافة إلى عضوية منصوروف وفيسيليسكي وتروتسكي، وعُين فان_ دير_ فليت جابياً لتحصيل الأموال، بالإضافة إلى السكريتار ستيبانوف، كما ضمت الجمعية أعداداً كبيرةً من الأساتذة الجامعيين أمثال فاسيليفسكي ديمتربيفسكي، تروتسكي وعلماء آثار مثل فينيفيتينوف. ومؤرخين مثل أملياتسنسكي، والطبيب الجوّال اليسيف، وصُنّف المنتسبون إلى الجمعية وفق المجموعات الثلاث التالية:

١- **أعضاء رئيسيين:** وكان على كل واحد منهم أن يقدم للجمعية مبلغ خمسة آلاف روبل مقابل حصوله على شرف العضوية الرئيسية فيها.

٢-**أعضاء عامين:** وكان على كل عضومنهم دفع مبلغ قدره ٥٠٠ روبل مقابل انتسابه إلى الجمعية، أوأن يدفع اشتراكاً سنوياً بقيمة ٢٥ روبل.

٣-**أعضاء مساعدين:** وعلى كل عضومنهم أن يدفع مبلغاً مالياً قدره ٢٠٠ روبل، أوأن يدفع اشتراكاً سنوياً بقيمة ١٠ روبلات. (٧)

وحسب النظام الداخلي للجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية هذه. كان عليها أن تعمل لتحقيق الأهداف والغايات التالية:

١-تقديم المساعدات اللازمة للحجاج الأرثوذكس من روس وغيرهم، في الأرض المقدسة فلسطين.

٢-إقامة المدارس والمستشفيات وبيوت السكن اللازمة للحجاج الأرثوذكس، وتقديم المساعدات للسكان الأرثوذكس المحليين، والكنائس والأديرة، والسلطات الروحية في الأرض المقدسة فلسطين، والشرق العربي.

٣-على الجمعية البحث عن المصادر والمخطوطات التاريخية والمخطوطات، والكتب التي تتضمن معلومات حول الأماكن المقدسة، بما فيها تلك التي

تتوفر لدى بعض الأشخاص المحليين هناك، والمخطوطات والكتب الموجودة في أرشيفات الأماكن المقدسة ودراستها والتعريف بها.

٤-جمع وإعداد كافة المعلومات المتعلقة بالأماكن المقدسة في فلسطين، ونشرها والترويج لها في روسية القيصرية.

٥-تسعى الجمعية إلى امتلاك أكبر عدد ممكن من الكتب والمخطوطات، والخرائط والوثائق وما شابه ذلك، ونقلها إلى روسية والسماح بدراستها ليس فقط من قبل علماء الجمعية، بل لكل من يرغب بذلك.

٦-على الجمعية تنظيم وتمويل بعثات استكشاف وبعثات تنقيب أثري تسعى إلى جمع كافة المعلومات المتعلقة بتاريخ الأرض المقدسة. (٨)

واعتمدت الجمعية في تمويلها المالي، بالإضافة إلى ما كانت تجنيه من الأعضاء الرئيسيين والعاديين والمساعدين سواء عن طريق المبالغ التي كانوا يدفعونها مباشرة مقابل انتسابهم المباشر إليها، واشتراكاتهم السنوية على مصادر التمويل الرئيسية التالية:

١- الحكومة القيصرية: حيث كانت الحكومة تقدم لها عن طريق وزارة المالية مبلغاً قدره ٣٠ ألف روبل كل عام.

٢-التبرعات التي كانت تقدّم من قبل أعضاء السينود المقدس (المجمع المقدس).

٣-التبرعات التي كانت تجمع لصالح الجمعية في مختلف الكنائس الروسية، أثناء الاحتفالات والأعياد الدينية، داخل الإمبراطورية الروسية وقد شكلت المصدرُ الرئيسي والأهم لميزانية الجمعية. (٩)

بدأت الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية نشاطاتها في بلاد الشام

(سورية وفلسطين) منذ عام ١٨٨٢ م، ووحدت جهودها مع القناصل الروس والمبشرين الأرثوذكس في هذه المناطق، وكانت أولى الأعمال التي قامت بها بتحسين الحالة الاقتصادية للحجاج الروس في الأرض المقدسة.

وخفّضت إلى حدٍ كبير تكاليف السفر من روسية إلى الأرض المقدسة وبالعكس، حيث تجمع في عام تأسيس الجمعية في مدينة بيت المقدس، ما يقرب من عشرة آلاف حاج روسي، قدمت لهم الطعام والسكن مقابل أسعار زهيدة جداً. كما أمنت لهم الرعاية الصحية، والمساعدات الطبية المجانية.

وفي نفس العام الذي شُكلت فيه الجمعية، ظهر أول عدد من المجلة الناطقة باسمها (المجلة الأرثوذكسية الفلسطينية)، التي كانت تهتم بتغطية كافة النشاطات التي تقوم بها البعثات التبشيرية الروسية على الأرض المقدسة. ومنذ تأسيس الجمعية أصبحت مهمة البعثة الروحية الروسية في بيت المقدس سهلة للغاية، ولم تعد تقوم بأعمال عامة فقط كما كان الأمر في السابق وإنما أصبحت تقوم بالإضافة إلى الوظائف التي يكلفها بها السينود المقدس أوالمجلس الفلسطيني، بكل الأعمال الأخرى نيابة عن الكنيسة الأرثوذكسية الروسية نفسها (١١).

في عام ١٨٨٢ م افتتحت الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية مدرسة للذكور في قرية المجدل، وخلال عام ١٨٨٣ م قامت بافتتاح أربع مدارس أخرى من بينها مدرسة في كفر ياسين، ومدرسة أخرى في رام الشجر.

في آب عام ١٨٨٣ م قام أعضاء جمعية أخوة مهد المسيح، وممثلو الجمعية الروحية البيضاء المقدسة، والشعب بانتخاب ثلاثة مرشحين لرئاسة بطركية القدس الأرثوذكسية، وكان من ضمنهم الأرخيماندريد نيكوديم، وفي آخر يوم من الانتخابات، وبعد صلاة قصيرة تمّ انتخاب البطرك الجديد حيث وقع الخيار على نيكوديم الذي كان يشغل منصب رئيس البعثة الروحية الأرثوذكسية لبيت المقدس لدى البطركية الأرثوذكسية الروسية في موسكو.

وفرحت الأوساط الكنسيّة، والإعلامية الروسية بانتخاب البطرك نيكوديم، وعبرّت وسائل الإعلام الروسية آنذاك عن فرح الأوساط الشعبية الروسية بهذه المناسبة قائلةً: "إن كنيسة بيت المقدس المحاصرة من كافة الاتجاهات، والمعذبة من قبل أعدائها في الداخل والخارج، تقاد أخيراً من قبل قبطان منقذ سيحافظ على سلامتها. يعتبر البطرك نيكوديم من أكثر الناس غيرة، وحماساً للكنيسة الأرثوذكسية. وفيه القدرة العالية والكفاءة الضرورية جداً لقيادة كنيسة هامة مثل بطركية بيت المقدس خصوصا وأن المستشرقين اللاتين والبروتستانت، الذين رصدوا أموالاً طائلة وحاولوا دفع المسيحيين الأرثوذكس الفقراء لتغيير عقيدتهم بالمال والغش والباطل. وهنا لابد من يدٍ قوية للقضاء على هذه المحاولات، والتخلص من تأثير هؤلاء المبشرين. كما تدعو الضرورة إلى تقديم كافة أشكال الدعم اللازم لهم من جهة روسية. ونحن على ثقة بأن البطرك نيكوديم بما يتمتع به من قدرات، سيكون المدافع الحقيقي عن حقوق المسيحيين الأرثوذكس، والكنيسة الأرثوذكسية في بيت المقدس ومهد السيد المسيح، التي بقيت ولقرون طويلة بيد المسيحيين الأرثوذكس، بالإضافة إلى بقية الأماكن المقدسة في فلسطين " (١٢).

غير أن البطرك نيكوديم، بدأ تعامله مع الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية بنوع من عدم الارتياح، وعندما بدأت الجمعية نشاطاتها التعليمية في الخليل، وبيت المقدس نفسها، أصبحت هذه النشاطات سببا للاختلاف في الرأي بين البطرك نيكوديم نفسه، وبعض ممثلي المجتمع الأرثوذكسي الفلسطيني. لكن ومع الوقت تمّ التغلب على هذه الخلافات، وأعطى البطرك نيكوديم موافقته على الكثير من الأعمال والنشاطات التي قامت بها الجمعية في المجتمع الفلسطيني، بما في ذلك توسيع حركة التنوير في الجليل والسامرة. وجاءت زيارة البطرك نيكوديم إلى سانكت بطرس بورغ، وكييف في تشرين الثاني عام ١٨٨٣ م، لتزيد العلاقات الروسية مع بطركية بيت المقدس صلابة وقوة.

وفي عام ١٨٨٤ م تابعت الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية عملها، ونشاطاتها، في فلسطين، فأقامت مساكن عديدة في الناصرة وحيفا لاستقبال الأعداد المتزايدة، من الحجاج الأرثوذكس، في وقت بدأت تتشكل فيه في المدن الروسية جمعيات مستقلة، تهدف إلى التعرف على الأرض المقدسة وتقديم الدعم للجمعية الإمبراطورية. ومع ازدياد وتوسع الأعمال الإنشائية والإصلاح التي قامت بها الجمعية ازدادت الحاجة إلى المزيد من الأموال، فأعطى السينود المقدس في روسية إذنا خاصا للجمعية الإمبراطورية لجمع التبرعات من الكنائس الروسية في عيد انتقال السيد المسيح إلى القدس. وهكذا ظهرت في روسية حملة تبرع سنوية واسعة النطاق، أصبحت تعرف باسم " تبرعات الشعانين " نسبة إلى أحد الشعانين، والذي أصبح منذ ذلك التاريخ واحدا من أهم مصادر تمويل الجمعية [١٣].

من ناحية أخرى كانت البعثات التبشيرية الكاثوليكية، والبروتستانتية قد سبقت البعثات التبشيرية الأرثوذكسية إلى فلسطين كما رأينا، وبدأت منذ ثلاثينات القرن التاسع عشر، بدراسة فلسطين والأماكن المقدسة فيها، ووضعت دراسات أعادت فيها ملكية الأماكن المقدسة للكاثوليك، الأمر الذي تطلب من الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية بذل جهد خاص، وتأسيس ما أصبح يعرف باسم علم الاستشراق الفلسطيني. وأخذت الجمعية على عاتقها بالإضافة إلى المسائل العلمية مهمة إجراء تحريات معقدة للغاية، حول المعطيات التي كان علماء البعثات التبشيرية الغربية قد وضعوها خلال فترة وجودهم في فلسطين، وتمكنت الجمعية من الوصول إلى نتائج هامة، ووضعت الأسس الأولى لعلم الاستشراق الروسي، واستطاعت دفع أعداد كبيرة من العلماء في ذلك الوقت لدراسة الشرق العربي.

بعد أن تمكنت الجمعية من امتلاك كافة الوثائق التي عثرت عليها بخصوص فلسطين، قامت بأرشفة المخطوطات والكتب، بما في ذلك الكتب النادرة التي تمّ شراؤها، بالإضافة إلى الخرائط الجغرافية وأشياء قيمة أخرى، كما قامت بإجراء

بحوث علمية، قام بها العلماء الذين كانوا يرغبون بتسليط الأضواء على الأماكن المظلمة في تاريخ الشرق. وكانت الجمعية تنشر وتوزع ما يتوصل إليه العلماء، من خلال ندوات كانت تعقدها للتعريف أكثر فأكثر بالأماكن المقدسة من أجل تشجيع أعداد جديدة من العلماء للمشاركة في هذه الدراسات(١٤).

ولم يكن من قبيل الصدفة أن يرد في تقرير السينود المقدس في عام١٨٨٤ م بعض السطور التي تعكس الاعتقاد بأن البطرك نيكوديم سيدافع بحماس أكبر عن الكنيسة الأرثوذكسية التي تتعرض لمخاطر الدعاية الكاثوليكية والبروتستانتية المعادية للأرثوذكسية، وقد نص التقرير على ما يلي: " في عام ١٨٨٣ م استطاعت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية، أن تمتلك مؤيداً لها هوالبطرك نيكوديم، الرئيس السابق لممثلية كنيسة بيت المقدس في موسكو. فقد رافقته هذه الكنيسة، وقدمت له الدعم اللازم، لاعتقادها بأنه سيقف بقوة للدفاع عن الأرثوذكسية التي تحاط في ظل وجوده في منصبه الجديد، بدعاية كاثوليكية وبروتستانتية معادية، ومن أجل نجاحه في مهمته سيجد الدعم اللازم من قبل الكنائس ذات العقيدة الأرثوذكسية الواحدة، وخصوصا " الكنيسة الأرثوذكسية الروسية " وفي رسالته التي بعثها إلى السينود المقدس بتاريخ ٢٧ كانون الأول ١٨٨٣ م طلب البطرك نيكوديم من الكنيسة الروسية تقديم المساعدة الأخوية اللازمة (١٥).

يجب الإشارة هنا إلى أن الدعاية الكاثوليكية والبروتستانتية المعادية للأرثوذكسية لم تكن الوحيدة التي رأت في الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية العدوالقوي لها، والذي استطاع أخيراً أن يُفشل محاولاتها، التي استمرت لسنوات طويلة من أجل القضاء على النفوذ الأرثوذكسي في فلسطين. بل وكذلك أعضاء جمعية أخوة المهد الأرثوذكسية اليونانية، رأوا أيضا في الجمعية الإمبراطورية خطراً على نفوذهم وتأثيرهم على سكان فلسطين من العرب المسيحيين، حتى أن بعض المندوبين الروس في الشرق لم يستطيعوا في البدايات الأولى فهم مهمة الجمعية

الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية، وهذا ما أعاق في الواقع عملـها ونشـاطاتها آنذاك. وهكذا فإن القنصل الروسي في بيت المقدس ف. أ. مكسيموف. لم يقدم الدعـم لكيزموفي مهمته عندما كلفته البعثة التبشيرية الروسية فـي دمشـق بإحصـاء عـدد المسيحيين الأرثوذكس في فلسطين. حتى أنه أخبر السفارة الروسية عنه وصوره بأنـه رجل يمكن أن ينتج عن نشاطاته في فلسطين ظهور خلاف حقيقي مع الدولة العثمانية، وفي نهاية المطاف اضطرت الجمعية الأرثوذكسية الفلسطينية إلى تقديم تعهد بـأن لا تقوم بأي نشاط في الأرض المقدسة فلسطين دون الحصول مسبقا على موافقة البطرك نيكوديم والسفارة الروسية في القسطنطينية، ووضعت لنفسها ميثاقاً مؤقتاً تضمن تنشيط عملها في الأرض المقدسة فقط وفيما يتعلق بعملها فـي روسـية، أن تسـعى قـدر المستطاع إلى مساعدة الأرثوذكس القادمين من الأرض المقدسة فلسطين، وقبولهم فـي المؤسسات التعليمية الروحية الروسية، والمؤسسات التعليمية الأخرى. (١٦)

خلال هذه الفترة، قام "خيترافو" معاون رئيس الجمعيـة الإمبراطوريـة، بزيـارة للأرض المقدسة فلسطين للإطلاع على وضع ونشاطات الجمعية والبعثات التبشـيرية الأرثوذكسية، وإعادة تفعيل دورهـا التبشـيري، وحـول ذلـك كتـب البروفيسـور دمترييفسكي في مخطوطته التاريخية ما يلي: " أثناء زيارتنا إلى القدس في ٢٠ كانون الأول، التقى خيترافو والقنصل الروسي في بيت المقدس، كاجيفنيكوف مـع البطـرك نيكوديم. وقد أطلق البطرك على خيترافواسم صديقه القديم، ولقبه بلقب ملاك السـلام، وأثناء قراءة البطرك للرسالة التي بعثها رئيس الجمعية الإمبراطوريـة الأرثوذكسـية الفلسطينية التي سلمه إياها خيترافو. قال البطرك: " إنني أعلن من هنا دعمي للجمعيـة الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية، وأرجومن الله أن يحقق لي أمنيتي بذلك ". (١٧)

وكان من أهم نتائج المحادثات التي أجراها خيترافومع البطرك نيكوديـم، تقديـم روسية المساعدات المالية اللازمة لبناء وترميم عدد من الكنائس في الأرض المقدسـة فلسطين. كما أعطى البطرك نيكوديم لـ كوزموالموافقة على افتتاح عدد من المدارس

في بيت جالا، الرام، كفر ياسين، رام الشجر. كما وافق أيضا على افتتاح مدرسة للبنات في الناصرة، ومدرسة عالية لإعداد المدرسين، من أجل إعداد الكوادر التدريسية اللازمة للمدارس التي ستفتحها الجمعية الإمبراطورية في فلسطين.

لكن وعلى الرغم من أن البطرك نيكوديم أبدى تعاوناً كبيراً مع البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية، والجمعية الإمبراطورية، واتخذ خطوات فعّالة من أجل مكافحة الدعاية الكاثوليكية والبروتستانتية، فإن كثير من المسيحيين في الشرق قد تخلوا عن العقيدة الأرثوذكسية، الأمر الذي تطلب من الجمعية تكريس المزيد من الجهد والمال. لوقف هذه الظاهرة. وفي عام ١٨٨٥ م، وبحضور أكثر من ألف حاج روسي، وضع البطرك نيكوديم حجر الأساس لبناء دير في القدس بتمويل كامل من الحكومة الروسية.

وعلى الرغم من أن الهدف المُعلن للبعثة الروحية الروسية في فلسطين، والجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية، كان يقوم على أساس تقديم المساعدات اللازمة للأعداد الكبيرة من الحجاج الروس، والدفاع عن الأرثوذكس، والأرثوذكسية في الشرق، ضد الدعاية المعادية، فإن هاتين المنظمتين وقعتا في خلافات، وتعارضات مستمرة، وقد دفعهما إلى ذلك السلطة الروحية، والقنصليات الروسية في الشرق. وقد لاحظ الحجاج الروس ذلك بأنفسهم، وأخبروا الصحف بذلك في غالب الأحيان. كما ورد في ملخص أخبار الكنائس عن عام ١٨٨٥ م، معلومات تشهد على وجود مثل هذه الاعتراضات، والاحتكاكات المستمرة، بالإضافة إلى وجود خلافات وتعارضات بين البطرك نيكوديم، والكنائس الأرثوذكسية اليونانية. وهكذا فقد اتهم البطرك من قبل هذه الكنائس بالتعصب للروس فقط، لأنه أقام الصلاة في كنيسة القيامة باللغة السلافية.[١٨]

في هذه الأجواء المشحونة بالتناقضات بين الكنائس الأرثوذكسية المختلفة على

أرض فلسطين تابعت الجمعية الإمبراطورية نشاطاتها، وتمكنت في ١٣ أيلول عام ١٨٨٦ م من افتتاح مدرسة متوسطة داخلية للذكور في الناصرة، بعدما كانت مغلقة لفترة زمنية طويلة، وبدأت تشرف على مدرسة الإناث القديمة فيها. وزاد عدد مدارس الجمعية بشكل سريع، الأمر الذي تطلب أعداداً كبيرة من المدرسين من السكان المحليين، فقامت بافتتاح معهدين لإعداد المدرسين، الأول للذكور في الناصرة، والثاني للإناث في بيت جالا، على مقربة من بيت المقدس. وانعكست نجاحات الجمعية الإمبراطورية في الناصرة بشكل رئيسي في دراسات الإنكليزي بليتوم، الذي أعلن للبطريارك نيكوديم، أن الدعاية البروتستانتية في الناصرة مشلولة بالكامل بسبب النشاطات التي تقوم بها البعثات التبشيرية الروسية فيها.[١٩]

في عام ١٨٨٦ م بدأت الجمعية بإصدار مجلة أخرى، أطلق عليها اسم " أخبار الجمعية الأرثوذكسية الفلسطينية " أصبحت تمثل صوت المستشرقين الروس، الذين تولوا دراسة بلاد الشام، ومصر والجزيرة العربية، غطت كافة الأعمال العلمية التي قاموا بها، والنتائج التي توصلوا إليها، كما قامت الجمعية في نفس العام، بمساعدة الدكتور الرحال يليسيف، الذي بدأ بدراسة الطرق التي يسلكها الحجاج الروس إلى الأرض المقدسة فلسطين عن طريق القفقاس، وآسية الصغرى. حيث تمكن من إنجاز عدد من الأبحاث الأنتربولوجية والكشف عن بعض المواقع الأثرية، قامت الجمعية بطباعتها ونشر نتائج كافة الاكتشافات التي توصل إليها. وفي مقطع من إحدى الرسائل التي بعث بها الرحالة الدكتور يليسيف يصف معاملة السكان المحليين له على النحو التالي: " في جميع مدن الشرق بدءاً من القسطنطينية وانتهاءً بقرى الصحراء العربية تغيرت علاقة المسلمين بالروس نحو الأفضل، وأصبح اسم الروس أواسم الموسكوبيين كما يسموننا في الشرق مجالاً للاحترام والفخار ".[٢٠]

في عام ١٨٨٧ م، عادت الخلافات للظهور مرة أخرى، بين الكنائس الأرثوذكسية على الأرض المقدسة فلسطين، وتعكرّت الأحوال الداخلية لأخوة المهد، وكتبت مجلة

أخبار الكنائس في التقرير المفصل الذي نشرته على صفحاتها عن حياة الشرق الأرثوذكسي ما يلي: " اضطر بطرك القدس نيكوديم، إلى المواجهة مع أعدائه الداخليين، وهؤلاء الأعداء على ما يبدوهم أعضاء جمعية أخوة المهد المقدس الذين عادوا إلى وضعهم السابق أوبشكل أدق، الذين عادوا إلى الفوضى، والذين يرون استمرار الصراع مع مثل هؤلاء الأعداء أزعج البطرك، وأدخل إلى قلبه الملل، ولم يجد لحظة واحدة للراحة والهدوء في أي من الأديرة الفلسطينية "(٢١). وتضيف المجلة: "أن البطرك نيكوديم، ومنذ بداية ممارسته للسلطة الروحية دخل في صراع حاد مع هؤلاء الفوضويين، وما يزال يخوض صراعه معهم بعناد، وبشكل مستمر، واستطاع أن يحقق نتائج مرضية جداً إذا ما أخذنا بالحسبان من جهة قِدَم وحجم الحقد، ومن جهة ثانية قصر الوقت " ٣ سنوات " وبفضل المنح المالية التي قدمت، انخفضت ديون البطركية إلى ٥ ملايين روبل، كما تم استعادة كل ما بيع أورُهن من أملاك البطركية، على الرغم من الخسائر الكبيرة التي منيت بها عن طريق أخوة المهد المقدس. كما تم أيضا تغيير المسؤولين المقصرين، الذين سرقوا الكثير من أملاك وأموال الكنيسة، واستبدلوا بمسؤولين صادقين والأهم من ذلك فقد تم استبعاد الفوضويين، ووضع نظم مراقبة شديدة في إدارة المؤسسة المالية، وحولت الإدارة المالية إلى إدارة جماعية ولم ينس نيكوديم أن يقوم بتمويل وبناء عدد من الكنائس والأديرة، وافتتاح ما يقرب من ١٥٠ مدرسة للأطفال، وبهذا الشكل يكون قد تمكن من إعادة الكثير من الأمور إلى نصابها "(٢٢).

في عام ١٨٨٨ م، اتهم سينود كنيسة القدس، البطرك نيكوديم بدفع البطركية إلى أزمة اقتصادية. وفي ١٧ شباط من نفس العام، أثبت البطرك في خطاب جوابي ألقاه في الكافدرا, ردّ على الاتهام وقال بأنه استطاع أن يجعل الحالة الاقتصادية للبطركية في وضع قوي وحسن للغاية، مقارنة بما كانت عليه قبل تسلمه السلطة الروحية فيها، وأشار إلى أن المساعدات التي قُدمت من قبل الكنيسة الأرثوذكسية الروسية ساعدت

إلى حد كبير. وقال أنه وبفضل المساعدة التي قدمها أخوة المهد المقدس الموجودين على الأراضي الروسية، تمكنت البطركية من تمويل وبناء الكثير من المدارس والأديرة وتسديد ديون بطركية القدس،وذكّر السينود بالنتائج الممتازة التي حققها أثناء زيارته إلى سانكت بطرس بورغ. وما يهمنا هنا هوالقسم الثاني من الكلمة التي ألقاها البطرك نيكوديم، حيث أجاب على الاتهامات الموجهة ضده بأنه أقدم على بيع الأماكن المقدسة للروس، وفضّلهم على بقية ممثلي العالم الأرثوذكسي الآخرين. إن علاقتنا مع بقية الكنائس الأرثوذكسية الأخرى في العالم، وعلاقتنا مع الروس لم تتغير عن العلاقة التي كانت قائمة معهم في العهود السابقة، والروس أقارب لنا بالعقيدة والمحبة، وعلاقتنا معهم علاقة أخوية، بمعنى محبة وثقة بالأرثوذكسية. بالإضافة إلى ذلك كله، روسية تقدم لنا المساعدات المالية التي نحن بأمس الحاجة إليها الآن، ومن روسية تأتينا النسبة الكبرى من مصادر دخلنا، والأماكن المقدسة تأخذ القسم الأعظم من دخلها من روسية، وروسية هي التي تقوم بأعمال الإصلاح المستمرة، والترميم فيها. وآلاف الحجاج الروس الذين يزورون كنيسة المهد، يقدمون الكثير من التبرعات، والحكومة الروسية كانت، وما تزال إلى الآن تقوم بمهمة حمايتنا وحماية أماكننا المقدسة في فلسطين، وبفضل روسية نحن نمتلك كنيستي المهد والقيامة، ولا نقدم لها مقابل ذلك سوى الصلوات والدعاء، لذلك فإن من يقف ضد ذلك فإنه في الحقيقة يسعى إلى إلحاق الأذى بأماكننا المقدسة ". (٢٣)

بهذا الشكل أثبت البطرك نيكوديم عدم صحة الاتهامات التي وُجهت إليه من قبل سينود القدس، وأعلن صراحةً أن روسية قدمت الكثير، الكثير من الخدمات للأرض المقدسة، ولولا مساعدتها ودعمها، لعانت البطركية الكثير من المصاعب والمشاكل من جهة أعدائها الذين وضعوا لأنفسهم هدف محاربة الأرثوذكسية. غير أن الخلافات المستمرة، والصراع الداخلي بين أخوة المهد المقدس لم تتوقف وأدّت في نهاية المطاف إلى محاولة اغتيال البطرك نيكوديم في ١٩ آذار عام ١٨٨٨ م، في دير

كيراسيم في الأردن. وخلال محاولة الاغتيال هذه، كان محاطاً بعـــدد مـــن الحجـــاج الروس الذين حاولوا التخفيف عنه قدر المستطاع, وكانوا السبب المباشر في نجاته كما تقول المصادر الروسية.

ورداً على تعاطف السينود المقدس التابع للكنيســـة الأرثوذكســـية فـــي موســـكو، والمصلين والعاملين في كنيسة السينود وحمدهم لله على نجاة البطرك نيكوديم، وجّـــه نيكوديم إلى السينود الروسي رسالة شكره فيها على تعاطفه معه في المحنة التي مـــرّ بها.(٢٤)

وفي عامي ١٨٨٨ – ١٨٨٩ م قضى البطرك نيكوديم آخر أيام رئاسته في السلطة الروحية في بيت المقدس، وتخلى عن منصب البطركية بعدمـــا اقتنـــع فـــي داخلـــه بضرورة ذلك في عام ١٨٩٠ م، وبذلك فقدت البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية أكبر مؤيد لها في الشرق العربي عبر تاريخ نشاطها فـــي الأرض المقدســـة. ومـــن المستحسن هنا أن نذكر لقاء الرسام الشهير فيليشاكين مـــع البطـــرك نيكوديـــم بعـــد استقالته، حيث أعرب له فيليشاكين عن دهشته لعدم السماح لرجال الدين الأرثوذكـــس الروس بإقامة الصلوات في الكنائس والأديرة الفلسطينية، فأجابه نيكوديم بأن مشـــاركة أي أرخيماندريد أوقسيس روسي في أية صلاة تقام في كنيسة القيامة، أوأيـــة كنيســـة أخرى ستؤدي بالضرورة إلى حملة احتجاج عارمة من جانب رجال الدين الأرثوذكس اليونانيين.(٢٥)

في حديثنا عن البعثات التبشيرية الروسية، ونشـــاطات الجمعيـــة الإمبراطوريـــة الأرثوذكسية الفلسطينية، لابد لنا من تسليط الضوء على نشاط الأرخيماندريد أنطونيـــن المعروف باسم (كابوستين) أحد أشهر المبشرين الروس في الأرض المقدسة فلسـطين، والذي كان يترأس البعثة الروحية الروسية في بيت المقدس، بما في ذلك بنـــاء ديـــر قيامة السيد المسيح على جبل ليون. وهذه مثلاً شهادة القسيس د. ل. فيكشيرسكي الذي

قال: " قبل أن أبدأ بتدوين ووصف الأبنية التي بناها الأرخيماندريد أنطونين يجب عليّ أن أعلن للملأ اعتزازي وفخري بالأرخيماندريد الروسي أنطونين: هذا الرجل الذكي الذي قدم الكثير والكثير من الخدمات للكنيسة الروسية والمصالح الروسية في الأماكن المقدسة لقد قدم كل ما استطاع تقديمه، وسيبقى اسمه خالداً لقرون طويلة، إنه العالم الأثري المؤمن، والمتمكن الذي يتقن عدة لغات أجنبية. [٢٦]

ولم يكن دير جبل ليون بالطبع البناء الوحيد الذي بني بفضل جهود أنطونين، وبتمويل من البعثة الروحية الروسية التي كان يقودها، وبمشاركة الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية قام ببناء العديد من الأبنية والأديرة، وهنا سنحاول تعداد أهم المنشآت التي أقامها: في القدس تمّ بناء بيت رائع، والكنيسة الثلاثية، ودير المعذبة الكساندرا، وأربعة أبنية منها مستشفى للنساء وآخر للذكور وبناءين كبيرين خصص أحدهما مكاناً لإقامة البعثة الروحية. وفي جشيماني دير القديسة مريم المجدلية، وفي بلدة قانا الجليلية دير القيامة وبرج ناقوس ضخم وفي الناصرة مركز للبحوث والدراسات ومدرسة للبنات ومستوصف وروضة أطفال، وفي يافا وعلى طريق القدس بناءين لاستقبال الحجاج الروس، ومعبد القديسين بطرس وبولص، ودير في الخليل وفي جبل الكرمل دير الرسول إيليا، وفي عين كارم دير للنساء، بالإضافة إلى ذلك فقد افتتحت في أنحاء فلسطين المدارس والمستوصفات والمستشفيات، كما بُنيت أعداد كبيرة من البيوت اللازمة لاستقبال الحجاج، وزودت بمختلف وسائل الراحة. [٢٧]

وأثارت أوضاع الأرثوذكسية، وأوضاع البعثات التبشيرية الروسية في فلسطين بعد عام ١٨٩٠ م اهتمام وقلق الشعب الروسي والحكومة في آن معاً، وأشارت التقارير الواردة من الأرض المقدسة إلى أنه يوجد لدى المبشرين الكاثوليك والبروتستانت إمكانات مادية هائلة تدفعهم للتحرك والعمل بنشاط كبير ضد الأرثوذكسية، في وقت لا تمتلك فيه البعثات الأرثوذكسية الروسية سوى القليل من الوسائط المادية اللازمة لها.

وهذا ما يهدد بالفعل وضع الأرثوذكسية على الأرض المقدسة، والذي يمكن أن يقتصر مع الزمن وجودها حصراً في أعضاء جمعية أخوة المهد لا أكثر، فقررت الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية تفعيل وزيادة نشاطاتها في فلسطين، وفي ظل هذه الظروف لعبت دوراً كبيراً في الحفاظ على الأرثوذكسية، ودعمها في فلسطين. وفي كلمته التي ألقاها أمام إدارة الجمعية أثناء اجتماع عقدته في نيسان عام ١٨٩٠ م، أشار القسيس سيميون بكروفسكي إلى ما يلي: " إن مصير الأرثوذكسية في الأرض المقدسة في الوقت الحاضر مرتبط فقط ببلادنا التي تعمل من خلال الجمعية الأرثوذكسية الفلسطينية، والتي تحقق الكثير من النجاحات بالرغم من الصعوبات الكبيرة التي تواجهها، وبالتالي لا بد لنا من تجميع قوانا، وعدم الخجل من إمكاناتنا المتواضعة لإنجاز هذه المهمة المقدسة، ودعم الأرثوذكسية في الأرض المقدسة، خصوصا وأننا نرى ما يفعله رؤساء البعثة الروحية الروسية في القدس الأرخيماندريد بارفيري، والأرخيماندريد أنطونين في سبيل خدمة الأرثوذكسية، على الرغم من قلة المساعدات المالية التي تقدم لهما, وبالرغم من عدم تقديم الدبلوماسية الروسية على الغالب للمساعدات اللازمة لهم على عكس ما تفعله الدبلوماسية الإنكليزية، والأمريكية والفرنسية مع بعثاتها البروتستانتية والكاثوليكية " (٢٨).

لابد من الإشارة هنا إلى أن الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية كانت قد ألغت في آذار عام ١٨٨٩ م لجنة فلسطين، وتولت كافة المهام التي كانت تقوم بها، كما وضعت يدها على أرصدتها المالية وضمتها إلى ميزانيتها، وأصبحت تشرف على كافة المدارس الأرثوذكسية الروسية في فلسطين. وكانت مدرسة الناصرة الداخلية من أفضل المدارس، وقد تخرجت منها الدفعة الأولى عام ١٨٩٠ م فاتخذت الجمعية الإمبراطورية قراراً بإرسال الطلاب الخريجين الأوائل إلى روسية لمتابعة التحصيل العالي في أكاديمية كييف الروحية، وأصبح ذلك تقليداً متبعاً منذ ذلك التاريخ. وفي عام ١٨٩٣ م بدأت الدفعة الأولى من خريجي أكاديمية كييف الروحية، بعد عودتها إلى

فلسطين بالعمل في المؤسسات التعليمية والمدارس التابعة للجمعية الإمبراطورية، وقد ورد في مجلة أخبار الجمعية الأرثوذكسية الفلسطينية عدد نيسان الخبر التالي: " بدأ خريجو أكاديمية كييف الروحية من السكان المحليين (سوريين وفلسطينيين) بالعمل معنا الآن في مدارس الجمعية ". [٢٩]

وقد لعب هؤلاء الخريجون دوراً كبيراً في رفع مستوى التعليم في مدارس الجمعية، وأعطوا الجمعية دفعاً جديداً لتوسيع نشاطاتها، فقامت بافتتاح سبع مدارس جديدة في منطقة الخليل كان من ضمنها مدرسة في معلولا، وأخرى في كفر كيتي، وثالثة على مقربة من الناصرة، في حين افتتحت المدارس الأخرى في جبال الجليل وحيفا الواقعة على البحر الأبيض المتوسط. وقد أشارت الجمعية في جلستها التي عقدتها في ١٩ كانون الأول عام ١٨٩٣ م، إلى أن عدد التلاميذ الذين يدرسون في ١٧ مدرسة تابعة للجمعية في منطقة الجليل وحدها وصل إلى ١٥٠٠ تلميذ.

غير أن الأوضاع المحلية في فلسطين بعد عام ١٨٩٥ م لم تعد في صالح البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية، بسبب عدم تعاون بطركية القدس معها، فركزت الجمعية نشاطاتها في منطقة الجليل وقطاع بلدة الناصرة التي كانت تقع خارج نطاق سلطة بطركية القدس الأرثوذكسية وقامت بافتتاح مدرستين جديدتين، وبذلك وصل عدد المدارس في الجليل إلى ١٩ مدرسة، لكنها لم تستطع ممارسة نشاطاتها في منطقة نابلس، على الرغم من وجود حاجة ماسة لافتتاح المدارس فيها وبالتالي بقيت المدارس الروسية في هذه المنطقة في مستوى متدني وعددها قليل جداً. [٣٠]

وقد ورد في التقرير الذي أعدته الجمعية عن نشاطاتها عام ١٨٩٦ م ما يلي: "ماذا فعلنا نحن الروس؟ لقد القينا بأنفسنا في الماء من أجل اخوتنا، وهذا أمر صعب جداً عندما يكون الماء عميقاً ويقف على الشاطئ أخوة آخرين يدفعوننا نحو الوراء ". [٣١]

وعلى الرغم من الصعوبات الكبيرة التي واجهتها الجمعية في تلك المرحلة، فقد

قامت بافتتاح خمسة مدارس جديدة في الجليل، بالإضافة إلى معهد في بيت جالا عوضاً عن المدرسة النسائية، وذلك لتخريج المدرِّسات، وقد أصبح هذا المعهد خلال فترة قصيرة من أهم المعاهد بالنسبة للسكان السوريين من النساء، حيث بدأت خريجاته ترفد المدارس السورية التابعة للجمعية بالكوادر التعليمية اللازمة. وعندما فتحت الجمعية مدرسة جديدة لها في القدس عام ١٨٩٨ م، لتعليم التلاميذ الأرثوذكس من سكان المدينة المقدسة، قاطعها السكان المحليّون، ولم يقدموا لها الدعم اللازم. وفي عام ١٩٠٠ م، حولت الجمعية مدرسة الناصرة الداخلية للذكور إلى مركز للأبحاث والدراسات ويقول البروفسور نيتسكوف. ن. م. الذي قدم إلى فلسطين في عام ١٨٩٩م، من أجل إجراء التفتيش على المدارس الروسية التابعة للجمعية الإمبراطورية واصفاً العلاقات التي كانت سائدة بين بطركية القدس الأرثوذكسية، ومدارس الجمعية كما يلي:

"تتعامل السلطة الروحية العليا في فلسطين بنوع من عدم الاهتمام مع المدارس الروسية التي بنتها الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية. وفي نابلس سمعت عبارات من قبل ممثلي السلطات الروحية المحلية. مثل " إن مدارس الجمعية الأرثوذكسية الفلسطينية توجد بشكل مستقل، وليست لنا بها أية علاقة على الإطلاق " (٣٢) ونظراً لهذه الأوضاع غير المرضية اضطرت الجمعية الإمبراطورية إلى تخفيف نشاطها في فلسطين، واقتصرت مهمتها هناك على مسألة تقديم المساعدات المالية للمدارس التي أقامتها، والإشراف عليها، في حين ركزت نشاطها في هذه المرحلة على سورية كما سنرى لاحقاً.

بقي لنا أن نشير إلى ما أوردته المصادر الروسية إلى أن معاملة المدرسين في المدارس الروسية التابعة للجمعية الإمبراطورية اختلفت إلى حد كبير عن المعاملة التي كانت تجري في المدارس التابعة للبعثات التبشيرية الكاثوليكية، والبروتستانتية. كما اختلفت أهدافها عن أهداف التبشير الكاثوليكي والبروتستانتي. كانت مهمة

المدارس الغربية أن تجبر التلميذ العربي على سماع كل شيء، والأخذ به. في حين كانت مهمة مدارسنا الروسية أن تجعل منهم أناساً مثقفين محبين للخير ولأوطانهم. كما كانت المدارس الغربية تسعى إلى التبشير بعقائدها الدينية الكاثوليكية والبروتستانتية وسط السكان العرب المسلمين.في حين لم تفعل المدارس الروسية الأرثوذكسية ذلك على الإطلاق، وحتى أنها كانت تدرس تلاميذها تاريخ ظهور الإسلام على الأراضي الروسية، والعلاقات الطيبة مع العرب التي بدأت منذ القرن العاشر الميلادي (٣٣).

٣ـالدراسات والتنقيبات الأثرية والبحوث العلمية التي قامت بها الجمعية في جنوب بلاد الشام (فلسطين):

إلى جانب حركة التنوير التي قامت بها الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية منذ تأسيسها، كانت الأعمال والبحوث العلمية أحد أهم توجهاتها واهتماماتها، حيث شارك فيها مشاركة فعالة أعظم علماء روسية خلال تلك الفترة من مستشرقين وفنانين وعلماء آثار، بالإضافة إلى عدد من المؤرخين الدينيين. كما أشرفت الجمعية على إعداد وتمويل البعثات العلمية إلى بلاد الشام، وقامت بأعمال التنقيب الأثري في بيت المقدس، وأشرفت على مناقشات العلماء الروس الذين قاموا برحلات إلى مناطق الشرق بمهمات خاصة، للبحث عن المخطوطات الشرقية واليونانية، وتمكنت الجمعية أيضاً من جمع وامتلاك التحف الأثرية والمخطوطات المسيحية الشرقية. (٣٤)

ووجدت أعمال البحث العلمي التي أشرفت عليها الجمعية الإمبراطورية انعكاساً قوياً لها في المطبوعات التي أصدرتها ونشرتها، حيث قد وضعت في أولى درجات سلم أولوياتها مسألة جمع وطباعة كل المصادر التي تحصل عليها، والنتائج التي يتم التوصل إليها حول الأرض المقدسة (فلسطين) سواء في روسية أوفي الغرب، والمتصل بماضي هذه الأرض أوحاضرها وتقييم البحوث والنتائج. وقد نالت

المعلومات العلمية القيمة التي نشرتها الجمعية إعجاب العديد من الباحثين والمستشرقين الذين يدرسون تاريخ الأرض المقدسة.

خلال فترة قصيرة من الزمن، تمكنت الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية من جمع وطباعة نفائس المصادر التاريخية المرتبطة بالأرض المقدسة، بدءاً من القرن الخامس عشر. وأصدرت المجلة الدورية الأرثوذكسية الفلسطينية، وقدمت معلومات مستفيضة عن آثار وطبوغرافية الأرض المقدسة ومناطقها الرئيسية، ورحلات الحجاج الروس واليونانيين، والحجاج الغربيين، مع شروح قيمة وهامة عن فلسطين وجيولوجيتها وتاريخ كنائسها وعادات وتقاليد شعبها والمخطوطات المدونة باللغات العربية واليونانية والكروزينية، بالإضافة إلى المخطوطات الأرمنية. وقد جمعت الجمعية كل هذه المعلومات والاكتشافات العلمية ووضعتها في ٥٢ مجلداً. كما قامت بطبع مجلدات أخرى عرّفت جيدا بتاريخ مصر وسيناء، وكذلك الشرق اليوناني القديم، بالإضافة إلى جمع أعداد كبيرة من المخطوطات القديمة التي كانت في مكاتب منطقة الشرق العربي.(٣٥)

من جهة ثانية، قام علماء الجمعية الإمبراطورية بالاطلاع على كافة المطبوعات والمنشورات التي أصدرتها مجموعات علماء الاستشراق من الغربيين، الذين استخدموا في دراساتهم مصادر قديمة جداً وسبقوا المستشرقين الروس إلى دراسة الأرض المقدسة (فلسطين)، فتبين لهم أن النتائج التي يعرضها المستشرقون الغربيون في الغالب غير صحيحة، وسُخِرت ودُوِّنت بالشكل الذي يخدم مصالحهم وتطلعاتهم لا أكثر، وبالتالي فقد قام المستشرقون الروس من علماء الجمعية بإعادة دراسة الأرض المقدسة (فلسطين) دراسة جديدة ومتكاملة، تمكنوا خلالها من رفض وتكذيب الكثير من الدراسات والنتائج التي وضعها علماء الاستشراق من الغربيين، كما قدمت الجمعية خدمة جيدة لعلم التاريخ، عندما أشرفت على جمع وإعداد وإصدار أكبر مجموعة دراسات حول أقدم نشاطات بعثات الحج إلى الأرض المقدسة (فلسطين) ليس

فقط عن مرحلة ما بعد القرن الخامس عشر بل وكذلك حول فترات تعود إلى العهد البيزنطي والسلافي، وحتى الفترة اللاتينية القديمة. وقد اعتمد علماء الجمعية في دراساتهم هذه على مخطوطات دانيال، بعد أن تمكنوا من جمع أقسام منها كانت مفقودة، وقام م. أ. فينيفتينوفا من تحقيقها وطباعتها على نفقة الجمعية ويعتبر الإحصاء الذي تضمنته إحدى المخطوطات والذي يعود إلى عام ١٤٩٦ من أفضل الإحصاءات المتعلقة بالحجاج إلى بيت المقدس على الإطلاق.

إلى جانب نشاطات الطباعة والنشر قامت الجمعية الفلسطينية الأرثوذكسية بتنظيم وإرسال بعثات أثرية قامت بأعمال التنقيب في الأرض المقدسة واستخدمت كل الإمكانات المتوفرة للحصول على اللقى الأثرية وامتلاكها، بالإضافة إلى شراء كميات كبيرة من المخطوطات التاريخية [٣٦].

تُعدّ مسألة شراء الإنجيل الأثري واحدة من أهم المهام والمسائل التي سعت الجمعية الأرثوذكسية الفلسطينية للقيام بها. وقد كلف المسؤول الأول في الجمعية عن البحث والتنقيب الأثري بشراء " المكان الروسي " في القدس القريب من كنيسة القيامة. هذا المكان الذي كان يسمى في السابق " ديباتا " وكان دائماً يلفت أنظار علماء الآثار الذين زاروا فلسطين أمثال بيروتي، كوندير، م فيفورز، توبلير روبينزون، سيب، بروف، اليسنيتسكي . ومنذ عام ١٨٥٨ م، كان المجلس الفلسطيني يشرف على " ديباتا " وأصبح يعرف منذ ذلك التاريخ بالمكان الروسي.

نتج عن أعمال التنقيب الأثري في منطقة " المكان الروسي " اكتشاف أعمدة بازلتية تعود إلى العهد البيزنطي، وقد تطلبت عملية إعادة ترميمها إنشاء بناء لتغطيتها وحمايتها من المطار والعوامل الجوية الأخرى. على الرغم من أن الجمعية لاقت صعوبات كبرى في البداية، إلا أنها تمكنت بطريقتها الخاصة من تجاوزها، وفي موقع الحفر، أقامت الجمعية فناءاً واسعاً للحجاج الروس الراغبين بحضور الصلوات التي

تقام في كنيسة القيامة، ثم أُخذ القسم الأعظم من هـــذا الفنـــاء لبنـــاء ديـــر القديـــس الكساندرنيفيسكي فيما بعد. (٣٧)

في أيلول عام ١٨٨٧ م، وبمناسبة ذكرى اليوم الذي أمرت فيه الإمبراطورة هلينـــة عام ٣٣٩م نبناء أول دير مسيحي في القدس، وضعت الجمعية الأرثوذكســـية حجـــر الأساس لأول منشأة لها في القدس. وفي عام ١٨٩٦ م، كانت الكنيسة المسماة باســـم القديس الكساندرنيفيسكي قد بنيت. وبهذا الشكل يكون مكان التنقيب الأثري الروسي قد أُغلق. كما قامت الجمعية بإجراء عمليات تنقيب أثرية في تلة جبل ليون فـــي مكـــان قريب جداً من القدس، وشاركت أيضاً في بعثة التنقيب التي كانت تعمل فـــي " بيـــت شعر " والمسماة على الغالب بيت زاهر الواقعة في منتصف الطريـــق بيـــن القـــدس والخليل، وهنا تمّ العثور على بقايا كنيسة قديمة جداً أرضها من الموزاييـــك، وعليـــها بقايا صور، آدميين ملتصقي الرأس وكأنهما يقبلان بعضهما البعـــض. وقـــد أعطـــت عملية العثور على هذه الأطلال الأساس للاعتقاد بأن بيت زاهر، هو المكـــان الـــذي التقت وتصافحت فيه الأمّان " أم الرب واليصابات " وهذا ما يتوافق مع ما ورد فـــي القصص الدينية المسيحية " مريم القادمة من الناصرة الجليلية، تســـير عـــبر الجبـــال وتدخل بيت زاهر وتقبل اليصابات ".(٣٨)

وبناء على طلب الجمعية الإمبراطورية، قام المسؤول عن الضرائب في فلســـطين كونزادسنيك، والأرخيماندريد أنطونين المعروف باسم (كابوســـتين) بمتابعـــة أعمـــال التنقيب التي كان الأرخيماندريد أنطونين قد بدأ بها عام ١٨٦٩ م بالقرب من مدينة يافا على طريق القدس، وفي إحدى زوايا أحد البساتين تمّ العثور على مدفن تحت الأرض وموزاييك رائعة أكد على أن هذا البستان يعد المدفن الحقيقي المعمّد من قبل القديـــس بطرس. وخلال التنقيبات التي أجريت في يريهون تم العثور على أديرة مهدمة تعـــود إلى القرن السادس الميلادي وحجر بازلتي عليه نقوش وكتابات وأخيراً فـــي تيميريـــا وعلى شاطئ بحر الجليل وخلال بناء مسكن للحجاج في القســـم المخصـــص للبعثـــة

وبمحض الصدفة تم العثور على أساس قديم يشكل حسب رأي البروفسور روستوفتسف الذي كان يترأس عملية التنقيب يعود إلى بقايا مدينة قديمة تعود إلى عهد هيرودوس أنتيباس.

واستغلت الجمعية الامبراطورية كل الإمكانات المتاحة لها من أجل امتلاك أكبر كمية ممكنة من اللقى الأثرية في فلسطين، والإشراف على الأراضي التي وجدت فيها، وكانت ترسل بشكل دائم بعثات من العلماء لشراء الأوابد الأثرية الثمينة، والسهلة النقل والحمل، والمخطوطات والبحوث المكتوبة ونقلها إلى روسية. وفي عام ١٨٨٢م قدمت المساعدات المادية اللازمة لتشكيل بعثة أثرية وعلمية برئاسة البروفسور أ.أتساغاريللي إلى سيناء وبيت المقدس، لدراسة المخطوطات الكروزينية والآثار القديمة التي ما تزال قائمة في هذه الأماكن، حيث دونت البعثة بعد إنجاز مهمتها النتائج التي توصلت إليها في العمل الكبير الذي أعده البروفسور تساغاريللي، والذي أسماه "الآثار الكرورينية القديمة في الأرض المقدسة وسيناء"(٣٩)

ح- نشاط الجمعية الامبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية في شمال بلاد الشام (سورية):

خلال فترة وجود البطرك سيرافيم على رأس السلطة الروحية في بطركية أنطاكية وسائر المشرق (١٨١٣-١٨٢٣)م، وجدت في دمشق مدرسة صغيرة للذكور، اقتصر التعليم فيها على دراسة "قوانين الرب" واستمر نشاط هذه المدرسة خلال فترة تولي البطرك ميفودي (١٨٢٣-١٨٥٠)م حتى عام ١٨٣٢م، حيث تسلم ابراهيم باشا الحكم في بلاد الشام، وأعطى للمسيحيين فيها حرية ممارسة عقائدهم الدينية. وخلال هذه الفترة عيّن ابراهيم باشا بحري بك سكريتاراً له، والذي كان ينتمي إلى المذهب الكاثوليكي اليوناني. وبفضل قوة بحري بك ومساعدة القنصلية الفرنسية تمكنت الجمعية اليونانية الكاثوليكية من شراء قطعة من الأرض في دمشق، أقامت عليها بناء مدرسة وكنيسة، ثم افتتحت عدداً من المدارس الكاثوليكية اليونانية في دمشق. وبعد

فترة وجيزة قامت الجمعية أيضاً بافتتاح مدارس جديدة أخرى مستغلة التسامح الديني الكبير الذي أبداه ابراهيم باشا، وبدأت أعدادٌ كبيرة من الكاثوليك اليونانيين بزيارة بلاد الشام، وخلال زمن بسيط بدأ أولاد الطائفة الأرثوذكسية يرسلون أولادهم إلى المدارس الكاثوليكية، حيث كانت تتم تربيتهم في أجواء العقيدة الكاثوليكية.

ولم يكن بطرك انطاكية وسائر المشرق ميفودي قادراً على تحمل مثل هذا الوضع، فطلب المساعدة من روسية في وقت أحبَّ فيه العقيدة الأرثوذكسية وفهم أهمية الدور الذي يمكن أن يلعبه في الصراع مع الدعاية الكاثوليكية المضادة للأرثوذكسية، وقام ضمن حدود الإمكانات المتوفرة لديه بافتتاح المدارس الشعبية. في عام ١٨٤٣م، عندما كان المستشرق الروسي والراهب المعروف بارفيري أوسبينسكي يقوم بزيارة لدمشق، طلب منه البطرك ميفودي لفت أنظار السينود الروسي المقدس إلى الحاجة الملحّة لبطركية انطاكية وسائر المشرق، لافتتاح المدارس الأرثوذكسية في دمشق، بيروت، حماه، حمص وأضنة، وذلك من أجل مواجهة المد التبشيري الكاثوليكي والبروتستانتي على أن يقوم المسيحيون الأرثوذكس العرب بإنشاء الأبنية اللازمة لذلك بتمويل من السينود الروسي المقدس.

تلبية للنداء الذي وجهه ميفودي بطريارك أنطاكية وسائر المشرق، سمحت الحكومة القيصرية الروسية لممثلي البطركية بزيارة روسية، وجمع التبرعات لدعم الأرثوذكسية في دمشق. وخلال فترة قصيرة تمكن البطرك ميفودي من الحصول على المساعدات المادية، وفي عام ١٨٤٦م. افتتحت مدرسة أرثوذكسية للذكور على مقربة من بطركية أنطاكية، درست فيها العقيدة المسيحية الأرثوذكسية، واللغة العربية، واللغات اليونانية، والتركية والإيطالية، وكانت روسية ترسل كل عام مبلغ ألف روبل لتغطية نفقات هذه المدرسة، ومنذ ذلك التاريخ بدأت المساعدات المالية الروسية تصل إلى بطركية أنطاكية وسائر المشرق، وخلال استقبال بطرك روسية ديروفي، للبطرك ميفودي أثناء زيارة الأخير لروسية، قدمت البطركية الروسية له المساعدات المالية

اللازمة لبناء مدرسة للبنات في دمشق، أشرفت عليها بعد افتتاحها إحدى راهبات ديـر صيدنايا المعروف جيداً في سورية. كما قامت البطركية الروسية بوضع مبلغ كبير من المال في البنك الروسي، ورصدت فوائده السنوية لتمويل المدارس الأرثوذكسية التابعة لبطركية أنطاكية وسائر المشرق في دمشق.

وفهم رئيس السلطة الروحية في الكنيسة الأرثوذكسية الروسية التي أرسلها المبشرون الروس في دمشق، أنه ومن أجل ضمان تطوّر ناجح للمدارس الأرثوذكسية في سورية، لا بد من تأليف وطباعة الكتب الدراسية باللغة العربية، غير أن الأموال اللازمة لتغطية نفقات الطباعة، وبناء مطبعة في دمشق لم تكن متوفرة لدى السلطة الروحية الأرثوذكسية في سورية، لذلك كلفت الكنيسة الروسية بارفيري أوسبينسكي بتأمين المبلغ اللازم وقام بارفيري نفسه بتجهيز دار لطباعة الكتب باللغة العربية، واللغة اليونانية في عام ١٨٥٣م، وفي شباط عام ١٨٥٤م أصدرت هذه الدار أول كتابين دراسيين باللغة العربية(٤٠).

بعد تأسيس الجمعية الامبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية في ٢١ أيار ١٨٨٢م، ركزت البعثات التبشيرية الروسية جلّ اهتماماتها في الأرض المقدسة فلسطين، ولم تعط لأنشطتها في سورية ولبنان الاهتمام المطلوب، وفي وقت نشطت فيه البعثات التبشيرية الكاثوليكية والبروتستانتية فيها إلى حد كبير وخصوصاً في لبنان، وبالتالي فقد اقتصرت أعمال الجمعية الامبراطورية خلال هذه الفترة في سورية على تقديم المساعدات المالية اللازمة لاستمرار المدرستين السابقتين لها في دمشق.

ونظراً للوضع السيء الذي كانت تعيشه الكنائس السورية، بسبب إهمال أبنيتها وعدم الإهتمام على الإطلاق بإصلاحها وبناء أديرة جديدة، بسبب عدم توفر الأموال اللازمة لذلك، كتب بارفيري أوسبينسكي رئيس البعثة الروحية الروسية في بيت المقدس رسالة إلى الجمعية الامبراطورية تضمنت ما يلي: "إن الأديرة والكنائس

العربية في سورية في وضع محزن للغاية، ومهددة بالتداعي والسقوط".[٤١] فقامت الجمعيةالإمبراطورية بتقديم المساعدات المادية اللازمة للأديرة والكنائس المحتاجة، عن طريق بطركية أنطاكية وسائر المشرق في دمشق والسلطات الروحية المحلية في المدن السورية الأخرى، كما قامت الجمعية بإجراء الإصلاحات اللازمة في عدد من الأديرة، وأهدت في عام ١٨٨٨م عدداً من النواقيس، لكنائس وأديرة حماه وحمص ثم إلى دير صيدنايا للنساء في عام ١٩٠١م. [٤٢]

في عام ١٨٩١م، قامت الجمعية الامبراطورية بإرسال بعثة علمية إلى بلاد الشام برئاسة الأكاديمي ن.ب كونداكوف، وعضوية البروفسور أ.أ. البسنيتسكي، قامت بدراسة المواقع الأثرية والأديرة والكنائس الموجودة فيها. وقد وضعت النتائج التي تم التوصل إليها في كتاب كونداكوف المعروف "جولة استطلاعات واستكشافات أثرية في سورية وفلسطين".[٤٣]

في عام ١٨٩٢م، وبمناسبة الذكرى العاشرة لتأسيس الجمعية الامبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية، أعطت الجمعية منحاً جديدة للعرب الأرثوذكس المولودين في المناطق التابعة لبطركية أنطاكية وسائر المشرق، وبطركية الإسكندرية، وبطركية القدس، وذلك من أجل الدراسة في الأكاديميات الروحية الروسية. لكن ذلك لم يلقَ أي تشجيع من بطركية القدس، في حين رحّبت بطركية أنطاكية بهذه الخطوة ترحيباً حاراً. وفي صيف عام ١٨٩٥م بعث البطرك سبيريدون رئيس السلطة الروحية في بطركية أنطاكية وسائر المشرق (١٨٩١-١٨٩٧)م برسالة إلى رئيس الجمعية الامبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية، تضمنت ما يلي: "معروف بالنسبة لكم حالة ووضع بطركيتنا وقلة الإمكانات المادية المتوفرة لديها بالمقارنة مع ما تمتلكه البعثات التبشيرية الكاثوليكية والبروتستانتية في سورية، نحن لا نستطيع مقاومة الدعاية المعادية للأرثوذكسية، لسبب بسيط هوأنه في دمشق، وفي سورية بأكملها، لا توجد مدارس أرثوذكسية جيدة، لذلك يرسل الأرثوذكس أطفالهم إلى مدارس معادية

للأرثوذكسية، وفيما يتعلق بتلاميذ المدارس الأرثوذكسية الموجودة، فإن التحصيل العلمي لديها في مستوى غير مرضٍ، وغير كافٍ على الإطلاق، والأرثوذكس المتخرجون من المدارس الأرثوذكسية، يشكلون مكسباً قوياً وحصاداً غنياً بالنسبة للاتين والبروتستانتية، ولن يكونوا على الإطلاق في وضع يمكن أن يعمقوا فيه العقيدة الأرثوذكسية في الشعب السوري، وهذه العقيدة تضعف يوماً بعد يوم. أقصد من ذلك أن تسرعوا في تحييد هذا الخطر الذي يحيط بالأرثوذكسية، والرب يأمرنا بالدفاع عنها بصدق. نحن نتوجه إليكم راجين أن تأتوا إلى مساعدتنا، ومساعدة الكنيسة الشرقية المساعدات التي ترسلونها لدعم وتغطية نفقات مدرستي الذكور والإناث في دمشق غير كافية للحفاظ عليها بالشكل المطلوب، وجذب الأطفال الأرثوذكس في دمشق إليها. وقد قمنا بتغطية الديون المترتبة على مدرسة الإناث، ونحن بحاجة إلى تغطية الديون المترتبة على مدرسة الذكور، وفيما يخص مدرسة الإناث أيضاً، نرجومنكم إعادة النظر في نظام التربية والتعليم فيها ورفع مستوى التعليم، هذا غير ممكن دون المساعدات المادية أيضاً".(٤٤)

انضم إلى بطرك أنطاكية وسائر المشرق في طلبه هذا أيضاً أساقفة المدن السورية الأخرى كما طالبوا بالإشراف على الأرثوذكسية وحمايتها، في مناطقهم، وتقديم العون المادي اللازم، وبالتالي لم تستطع الجمعية الامبراطورية رفض هذا الطلب الجماعي، فأدخلت تحت إشرافها المدارس التالية: مدرسة الإناث في دمشق، مدرسة الذكور أيضاً، ومدرسة سوق الغرب، ومدرسة مار مارون والعمرة، والمعلقة، وثلاث مدارس في حمص، ومدرسة للإناث في صيدنايا، وجميع المدارس الأرثوذكسية الأخرى في سورية.(٤٥)

في عام ١٨٩٦م. ازداد عدد المنتسبين في سورية إلى المؤسسات التعليمية التابعة للجمعية الامبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية إلى حد كبير وقد بلغ عدد التلاميذ في مدارس حمص ٥٠٠ تلميذاً، وفي مدارس دمشق حوالي ٤٥٠ تلميذاً، ودرست في هذه

المدارس العقيدة الأرثوذكسية، واللغات العربية، والروسية، واليونانية. بالإضافة إلى نشاط الجمعية في مجال حركة التنوير، أعارت الجمعية اهتماماً كبيراً لمسألة الخدمات الطبية، والرعاية الصحية التي قامت بتقديمها للسكان المحليين وهكذا. وفي ٢٩ تشرين الثاني عام ١٨٩٧م تم افتتاح مستوصف في دمشق، وبدأت عملية استقبال ومعالجة المرضى مجاناً، وبغض النظر عن عقائدهم سواء أكانوا من المسلمين أوالمسيحيين، وخلال الأشهر الأولى التي انقضت بعد افتتاح المستوصف في دمشق، تمت معالجة ٤٥٦ مريضاً.

وفي ١٢ كانون الأول عام ١٨٩٧م، بعثت الرابطة الأرثوذكسية المحلية نيابة عن مجلس دمشق برسالة إلى مجلس الجمعية الامبراطورية، أعربت فيها عن امتنانها للجمعية على هذه المؤسسة الخيرية في دمشق.(٤٦)

وفي عام ١٨٩٨م، موّلت الجمعية الامبراطورية بعثة مدير معهد الآثار البروفسور أوسبينسكي الذي قام بدراسة ميدانية لآثار تدمر وبعلبك وفلسطين، ووضع نتائج جولته وأبحاثه التي قام بها في كتابه المعروف "الأوابد الأثرية في سورية".(٤٧)

في عام ١٨٩٩م، تم انتخاب ميليتي رئيساً لبطركية أنطاكية وسائر المشرق، والبطرك ميليتي من أصل عربي، وكانت هذه هي المرة الأولى منذ عام ١٧٤٢م التي يتسلم فيها بطركية أنطاكية وسائر المشرق الأرثوذكسية بطرك عربي، حيث جرت العادة أن ينتخب البطرك من اليونانيين، وكان ميليتي الذي بقي في منصبه الروحي هذا حتى عام ١٩٠٦م، من المتعاطفين جداً مع روسية، ورأى فيها المدافع الحقيقي عن الأرثوذكسية في الشرق، وكان يعتبر الشعب الروسي أخاً للشعب العربي السوري، الذي يرتبط الأرثوذكس من أبنائه معه بروابط العقيدة الأرثوذكسية الواحدة. من هذا المنطلق، وثّق البطرك ميليتي العلاقات بين البطركية، والجمعية الامبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية، وكان يرى أن نشاطاتها تمثل المرحلة الأولى من العلاقة

الكنائسية الروحية بين أبناء العقيدة الواحدة، واعتبر أن الجمعية ضرورية جداً لمساعدة الأرثوذكس السوريين، لذلك كان دائماً يهتم بإنجاح أعمالها ونشاطاتها التي كانت تقوم بها، وتعامل بمحبة مع جميع الروس الذين زاروا دمشق والبطرياركية خلال تلك الفترة.(٤٨)

في عام ١٩٠٠م، افتتح مركز البحوث الأرثوذكسية في دير البلمند (على أرض لبنان حالياً) وبناء على طلب البطرك ميايتي نفسه، تضمن برنامج المركز تدريس اللغة الروسية خلال ست سنوات، وذلك ليتمكن الدارسون العرب في المركز، من استخدام الكتب والمراجع المكتوبة باللغة الروسية، والاطلاع أيضاً على الآداب الروسية بلغتها الأم، كما كان المركز يرسل الطلاب الأوائل إلى روسية، من أجل متابعة دراستهم العالية، ولتحقيق مستوى أفضل للعاملين في المركز باللغة الروسية طلب البطرك ميليتي من الجمعية الأرثوذكسية الفلسطينية إرسال أساتذة روس من الأكاديميات الروحية الأرثوذكسية للتدريس في المركز.(٤٩)

في عام ١٩٠٠م، بلغ عدد المدارس الأرثوذكسية التي تشرف عليها الجمعية الامبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية ٢٥ مدرسة، ترجمت المواد التي كانت تدرس فيها إلى اللغة العربية، مثل تاريخ العقيدة الأرثوذكسية وصلوات مختصرة، بالإضافة إلى الحساب، واللغة العربية، ومواد أخرى، وكانت الجمعية قد فتحت أبواب مدارسها فقط لاستقبال التلاميذ من أبناء الطائفة الأرثوذكسية حصراً، ولم تقبل تدريس أبناء الطوائف المسيحية الأخرى، وذلك من أجل الحفاظ على العقيدة الأرثوذكسية، وعلى الأطفال من التأثر بالعقائد المسيحية الأخرى. ولم تسع كما فعلت بقية البعثات التبشيرية الأخرى، البروتستانتية، والكاثوليكية، إلى إدخال المسلمين في العقيدة المسيحية.

ولم تتمكن الجمعية الامبراطورية من بناء مدارس أرثوذكسية أخرى في سورية،

بسبب قلة الإمكانات المادية المتوفرة لديها، وبالتالي بدأت بشكل جدي العمل على تجديد وتطوير المناهج التعليمية، التي كانت متبّعة في هذه المدارس، ورفع مستواها بشكل مستمر، ووضع البرامج الجديدة للعمل فيها، ولا بد من أن نشير هنا إلى أن ظهور المدارس الأرثوذكسية التي كانت تعلم التلاميذ مجاناً في أكثر من مكان أدت إلى إغلاق المدارس غير الأرثوذكسية فيها، خصوصاً عندما غيرت المدارس البروتستانتية والكاثوليكية من نظامها الداخلي مع مطلع القرن العشرين، وبدأت تطلب مبالغ كبيرة مقابل قبول التلاميذ فيها، وبنتيجة ذلك ازدادت أعداد التلاميذ في المدارس الأرثوذكسية بشكل كبير، وقد لاحظ السكان المحليون أنفسهم مدى اهمية الجمعية الأرثوذكسية الفلسطينية لهم ولأطفالهم، خصوصاً وأن تعليم اولادهم كان يجري في جو العقيدة الأرثوذكسية.

وعلى خلاف المدارس الكاثوليكية والبروتستانتية، كانت المدارس الأرثوذكسية التابعة للجمعية تعمل دائماً على تربية تلاميذها العرب الأرثوذكس، على حب وطنهم وقوميتهم العربية، والاعتزاز بها، وتحريضهم على النضال من أجل استقلال بلادهم وسيادتها، وفيما يلي ما ورد في مذكرات البروفسور فاسيليف: "تتمايز المدارس التابعة للجمعية الامبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية، عن مدارس البعثات التبشيرية اللاتينية، والبروتستانتية بما يلي: حاولت المدارس اللاتينية، والبروتستانتية، دفع العرب المسلمين لتبني اللاتينية، أوالبروتستانتية، ومدارس الجمعية الامبراطورية لم تفعل ذلك على الإطلاق، وكل ما فعلته الجمعية أنها كانت تسعى دائماً للتعرف أكثر على العرب وماضيهم المجيد، وإطلاعهم على ماضينا العريق، وظهور الإسلام في بلادنا، وإطلاعهم على ثقافاتنا وآدابنا"(٥٠)

في عام ١٩٠٢م، تم الإعتراف من قبل السلطات العثمانية بكافة المدارس الأجنبية الموجودة في سورية ، وهذا ما أعطى دفعاً جديداً للجمعية الأمبراطورية في تجديد نشاطاتها وتفعيلها. ولم ينس العاملون في الجمعية تقديم الخدمات الطبية للسكان

المحليين، وخلال عامي ١٩٠٥-١٩٠٦م قامت مستشفيات ومستوصفات الجمعية بمعالجة ١٢٦ ألف مريض. وفي عام ١٩٠٥م تولى ي.ي. صوكالوف رئاسة تحرير مجلة (أخبار الجمعية الأرثوذكسية الفلسطينية)، وهوأستاذ متخصص بتاريخ بيزنطة، في اكاديمية سانكت بطرس بورغ الروحية، وقد شارك في إعداد منشورات المجلة عدد كبير من العلماء الروس المتخصصين بالتاريخ، والدراسات البيزنطية، بالإضافة إلى عدد كبير من المستشرقين، أمثال ف.غ. فاسيليفسكي، ي.ي. تروتسكي، ي.ف بميالوفسكي والأرخيماندريد انطونين (كابوستين) والأرخيماندريد ليونيد (كافيلين) وعلماء آخرون.

في ٢٠-٢١ أيار ١٩٠٧م، احتفلت الجمعية الامبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية بمناسبة مرور ٢٥عاماً على تأسيسها، وقام بطرك أنطاكية وسائر المشرق غريغوري الرابع، بإقامة صلاة خاصة بهذه المناسبة. كما احتفلت كنائس حمص وحماه بهذه المناسبة بإشراف الأساقفة، وبحضور طلاب المدارس الأرثوذكسية، التابعة للجمعية الأمبراطورية. وفي نهاية الاحتفال تم استقبال الوفد الذي يمثل الجمعية من قبل البطرك غريغوري الرابع نفسه بحضور القنصل الروسي العام في دمشق آنذاك.

خلال العام الدراسي ١٩٠٨-١٩٠٩م، ازداد عدد التلاميذ في مدارس الجمعية بشكل كبير، ففي جنوب سورية بلغ عدد التلاميذ ٥١٥٥ تلميذاً توزعوا على ٥٠ مدرسة، في ٣٥ مدينة وقرية وعمل فيها ١٦٤ مدرساً منهم ٨٩ مدرساً من الرجال و٧٥ من النساء، وفي العام الدراسي ١٩٠٩-١٩١٠م وصل عدد التلاميذ الذين يدرسون في مدارس الجمعية في شمال سورية إلى ٢٧٦٦ تلميذاً موزعين على ٢٠ مدرسة، درّس فيها ٤٥ مدرساً و٤٢ مدرّسة. وفي مركز البحوث في بيليمناريا التي كانت تعد المركز الروحي الوحيد الذي يقوم بتخريج رجال الدين الأرثوذكسي، والتابع لبطركية أنطاكية وسائر المشرق. تم تخريج ٣٥ رجل دين في العام الدراسي ١٩٠٩-١٩١٠م، وكان الأرخيماندريد أغناطيوس تيروس، الذي سبق وأنهى دراسته الأكاديمية

العالية في الأكاديمية الروحية الأرثوذكسية في موسكو، وحصل على دكتوراه في علم اللاهوت، المشرف العام على هذا المركز، وقد تولى بالإضافة إلى ذلك تدريس اللغة الروسية، والكتاب المقدس، وفي عام ١٩١١م تم إرسال خمسة من خريجي المركز لإتمام التحصيل العالي في روسية.

في ١٧ أيلول عام ١٩١٠م، تم افتتاح مدرسة متوسطة في حمص، وذلك من أجل رفع مستوى التعليم لدى الأرثوذكس السوريين، والرد على الدعايات المعادية للأرثوذكسية، حيث أمر رئيس الأساقفة هناك أفاناسي بتدريس اللغات العربية والروسية والإنكليزية، في هذه المدرسة بدءاً من العام الدراسي ١٩١١-١٩١٢م.

عندما كان البطرك غريغوري الرابع بزيارة لسانكت بطرس بورغ، في ٢١ آذار ١٩١٣م، قام بزيارة مقرّ الجمعية الأرثوذكسية، وأعرب عن امتنانه لها على الأعمال الخيّرة التي قامت بها في سورية لخدمة الأرثوذكسية. ومع بداية الحرب العالمية الأولى كانت سورية ما تزال تنعم بالسلام. غير أنه وبعد مرور شهر على إعلان ألمانية الحرب على روسية، عاشت سورية ظروفاً قاسية وفقدت السلع الاستهلاكية من أسواقها، حيث قامت السلطات العثمانية بمصادرتها لتمويل قواتها. وساءت الأوضاع المعاشية في البلاد إلى حد كبير وأصبحت المؤسسات التابعة للجمعية الامبراطورية في وضع صعب للغاية، بسبب استحالة وصول المساعدات المالية إليها من روسية، ولم يعد باستطاعة مجلس الجمعية تمويل المدارس التي شُلَّت بشكل تام. وفي ٢١ آب ١٩١٤م، اتخذ مجلس الجمعية الامبراطورية الاجراءات التالية:

١- إغلاق جميع المدارس التابعة للجمعية، وأوكل مهمة الحفاظ على هذه المدارس والممتلكات التابعة لها إلى أقدم مدرّس في كل مدرسة منها.

٢- تم تخيير المدرسّين الذين كانوا يعملون في هذه المدارس بين العودة إلى الوطن أوالبقاء في أماكن آمنة ضمن القدس أوفي مصر.

وبالفعل فقد أغلقت الجمعية جميع المدارس التابعة لها، غير أن المدرسين لم يتمكنوا من العودة إلى روسية وبالتالي تم جمعهم من مختلف المدن السورية، والفلسطينية واللبنانية. في مدينة دمشق ريثما تأتيهم المساعدات اللازمة، بما في ذلك تكاليف السفر عن طريق وزارة الخارجية الروسية. وفي ١٦ أيار ١٩١٥م، تسلم القنصل الروسي في الإسكندرية أ.م بيتروف مبلغ خمسين ألف فرنك فرنسي، خصص منها ٢٠ ألف لترحيل مدرسي الجمعية من دمشق إلى روسية. وخلال هذه الفترة لم تستطع الجمعية الامبراطورية الحصول على أية معلومات عن وضع وحالة مدرسيها في سورية، في وقت احتلّت فيه القوات العثمانية البلاد بأكملها، أوأية معلومات عن الروس الذين بقوا في سورية خلال تلك المرحلة. وفي أواسط شهر حزيران ١٩١٥م، وصل إلى الاسكندرية قناصل إيطالية قادمين من سورية، بعد أن دعتهم حكومتهم للعودة إلى وطنهم ومنهم ساليرنوميللي، والغراف سيني، ومن خلال هؤلاء اطلّعت الجمعية على وضع المواطنين الروس في دمشق بمن فيهم المدرسين التابعين لها، وعلمت بأن السلطات العثمانية كانت قد قامت بنقلهم مع بقية المواطنين الإنكليز والفرنسيين إلى داخل سورية، في أورفه وديار بكر، منذ تاريخ ١٨ أيار ١٩١٥م، ولم يبق من العاملين في إطار الجمعية سوى ٣١ امرأة ورجل واحد في دمشق. وتبين فيما بعد أن السلطات العثمانية جمعت المواطنين الروس في دير للأرمن في أورفه، ووضعت كل ١٢ رجلاً في غرفة واحدة عاشوا خلالها ظروف حياة قاسية جداً، ومات قسم كبير منهم، ولم يتمكن القسم الذي بقي على قيد الحياة من العودة إلى روسية، إلاّ بعد تحرير سورية من القوات العثمانية، على يد الحلفاء والقوات العربية المتعاونة معها.

٥ـ الخاتمة:

في نهاية هذا البحث لا بد من الإشارة إلى أن البعثات التبشيرية الروسية كانت

كغيرها من البعثات التبشيرية الأخرى البروتستانتية والكاثوليكية والتي سبقتها إلى منطقة الشرق العربي تسعى إلى تحقيق مهمة مزدوجة ظاهرها إنساني، وباطنها غايات وأطماع توسعية أوكحد أدنى توسيع دائرة النفوذ أكثر ما يمكن، لكن هذا برأينا وللأمانة العلمية والإنصاف، لا ينفي على الإطلاق وجود بعض الآثار الإيجابية التي نتجت عن وجود البعثات التبشيرية الروسية في المجتمع العربي في الشرق، وفيما يلي الاستنتاجات التي توصلت إليها بنتيجة هذه الدراسة:

١- ساعدت البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية على انبعاث الروح القومية في منطقة الشرق العربي، وخصوصاً خلال الفترة الواقعة بين عامي ١٨٦٥-١٨٨٠م. وجاءت مساهمتها في ذلك من خلال اهتمامها بتدريس اللغة العزبية، كما رأينا في المدارس التي قامت بفتحها في سورية وفلسطين، وتعريب المناهج الدراسية، وتدريس التاريخ العربي، واهتمامها أيضاً بكل ما يمكن أن يفصل بين العرب والدولة العثمانية.

٢- ساهم خريجومدارس البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية مع غيرهم من خريجي مدارس البعثات التبشيرية الأخرى، في تشكيل الجمعيات العربية مثل جمعية الآداب والعلوم، التي أسسها العالمان (في اللغة العربية) ناصيف اليازجي وبطرس البستاني في بيروت عام ١٨٤٧م والجمعية الشرقية التي أقيمت في بيروت عام ١٨٥٠م، والجمعية العلمية السورية سنة ١٨٥٧، والتي دخل في عضويتها ١٥٠ من المثقفين العرب من مختلف الأديان، وكانت الوحدة الوطنية القائمة على الاعتزاز بالتراث العربي شعار هذه الجمعية، الذي أصبح شعاراً لليقظة العربية. وجمعية بيروت السرية التي شكلت عام ١٨٧٥م، والتي كانت تطالب باستقلال سورية، والاعتراف باللغة العربية لغة رسمية فيها. وفي عام ١٨٨١م، قامت جمعية حقوق الملّة العربية من المثقفين العرب في بيروت، ودمشق وطرابلس وصيدا، بتوزيع منشورات تحثّ العرب على

اليقظة، وتذكرهم بأمجادهم، وأن الأتراك اختلسوا الخلافة من العرب الذين قامت على أكتافهم الفتوحات.(٥١)

٣- لقيت البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية مضايقات كبيرة من قبل السلطات العثمانية، لأنها كانت مرتابة جداً من روسية القيصرية، التي وقفت وراء أشغال الثورة اليونانية عام ١٨١٥م من خلال موقفها المعلن، والمؤيد لتأسيس جمعية (فيليكا هيتاريا) التي طرحت شعار اليونان لليونانيين، بالإضافة إلى مشاركة أعداد كبيرة من المتطوعين الروس في هذه الثورة، والتي انتهت باستقلال اليونان عن الدولة العثمانية عام ١٨٣٠م. من هنا كانت السلطات العثمانية تسعى دائماً إلى تحجيم نشاط البعثات التبشيرية الروسية في بلاد الشام، خوفاً من أن تمتد نار الثورات إليها، وزادت الضغوط التي كانت تمارسها عليها، بشكل خاص بعد عام ١٨٧٨م، وحصول أقاليم البلقان على الاستقلال عن الدولة العثمانية بدعم من روسية القيصرية، حتى أن الدولة العثمانية لجأت في سنوات ١٨٩٤-١٨٩٥-١٨٩٦م إلى إرتكاب مجازر مروعة بحق الشعب الأرمني، وذلك لوقف التطلعات السياسية القومية لدى هذا الشعب، بعدما أذكت روسية فيه الروح القومية خلال تلك الفترة وكانت تلك المجازر بمثابة رسالة تحذير وجهتها إلى الحركة القومية العربية المتعاظمة آنذاك.

٤- كانت لروسية القيصرية غايات وأهداف سياسية واقتصادية في بلاد الشام، أرادت تحقيقها عن طريق بعثاتها التبشيرية الأرثوذكسية، ومثلت هذه البعثات عيون روسية في المنطقة وراقبت كل حدث فيها، وتنقلت في أصقاعها بحجة التبشير وإجراء التنقيبات الأثرية، وأرسلت الكثير من التقارير التي تضمنت مشاهداتها فيها بما في ذلك رصد نشاطات الدول الغربية أيضاً في هذه المنطقة، عن طريق بعثاتها التبشيرية هي الأخرى الكاثوليكية والبروتستانتية.

كما حاولت روسية إيجاد رأس جسر لها في هذه المنطقة، عن طريق البعثات التبشيرية هذه. وقد شكلت البعثات التبشيرية البروتستانتية الأمريكية عامل دفع وتشجيع غير مباشر للحكومة الروسية على اتباع هذا الأسلوب، بعدما لاحظت أن الولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال كانت قد جعلت من البعثات التبشيرية البروتستانتية، وسيلة تجديد تساهم في عرض البضائع والمنتجات الأمريكية في بلاد الشام وبالتالي أصبحت هذه البعثات ممثلة للامبريالية التجارية إن صحّ التعبير.

٥- شكلت البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية في بلاد الشام، جزءاً من الدبلوماسية الروسية العامة، تجاه هذه المنطقة خلال تلك الفترة، في وقت فهمت فيه أن البعثات التبشيرية الأخرى وبخاصة البروتستانتية، تعتمد في نشاطاتها وتواجدها الكبير في المنطقة على تغطية وحماية الدبلوماسية الإنكليزية، والأمريكية، وفي وقت كان فيه الأسطول الأمريكي يزور معظم الأحيان الموانئ السورية، لإظهار مدى اهتمام الولايات المتحدة بهذه البعثات. "وبعد عام ١٨٥٠م، كان العديد من المبشرين الأمريكيين يعملون في المنطقة، لهم صلاحيات القناصل"[٥٢] وبالتالي فقد أرادت الحكومة القيصرية أن تعمق دورها السياسي في المنطقة أيضاً، عن طريق بعثاتها التبشيرية، آملة الحصول على حصة لها على الأقل، عندما يحين موعد تصفية الحسابات المتعلقة بالمسألة الشرقية. لكن روسية وكما دلّت الأحداث اللاحقة، لم تكن موفقة في ذلك على الإطلاق وتبين أنها دخلت الصراع في وقت متأخر جداً.

٦- كان من أحد أهم أسباب عدم نجاح البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية في بلاد الشام، قلة الإمكانات المادية التي قدمتها لها الحكومة القيصرية، والتي لم تكن تتناسب مع حجم المهمة الكبيرة التي ألقيت على عاتق هذه البعثات، بالإضافة إلى محاربة البعثات التبشيرية البروتستانتية والكاثوليكية لها من

خلال شن دعاية معادية قوية ضدها، أدت إلى تخلي أعداد كبيرة من الأرثوذكس عن عقيدتهم، وتبني البروتستانتية أوالكاثوليكية، غير أن السبب الأهم هو أن الولايات المتحدة الأمريكية آنذاك، كانت مصممة على قطع الطريق على روسية، ومنعها من ترويج موضة الثورات القومية التي أشعلتها في البلقان، والحيلولة دون انتقال عدواها إلى المنطقة العربية، خصوصاً وأنها أصبحت قريبة جداً منها. عام ١٨٩٤م عندما نفخت الروح في القومية الأرمنية، والدليل على ذلك هو:"أن الولايات المتحدة الأمريكية رفضت اقتراحاً تقدم به وزير المستعمرات البريطاني جوزيف تشامبرلين في أيلول عام ١٨٩٦م إلى رئيس وزراء بريطانية، تضمن أن تقوم الدولتان بعرض مشترك لأسطوليهما البحريين، للتأثير على السلطان العثماني، ووقف المذابح المروعة بحق الأرمن، والبدء بإصلاحات سياسية"(٥٣)

٧- كانت البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية أقلّ تأثيراً على المجتمع العربي في الشرق بشكل عام، من البعثات البروتستانتية والكاثوليكية. ويكفي أن نذكر دليلاً على ذلك الفارق الكبير في عدد المدارس التي افتتحتها بالمقارنة مع المدارس التي افتتحتها البعثات التبشيرية البروتستانتية، إذا لم يتجاوز عدد المدارس الروسية الخمسين مدرسة في بلاد الشام، في حين "بلغ عدد المدارس البروتستانتية في عام ١٩٠٠م ٣٦ مدرسة عليا، تضم ٢٧٠٠ تلميذاً، و٣٩٨ مدرسة ابتدائية، تضم ١٥ ألف تلميذاً، بالإضافة إلى امتلاكها جامعة في بيروت، عرفت باسم الكلية السورية. (٥٤)"

٨- كانت مسألة الصراع الدولي على منطقة الشرق العربي قد حسمت -على الأقل ضمنياً- عندما دخلت البعثات التبشيرية الروسية هذه المنطقة بفعالية، بعد تأسيس الجمعية الامبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية عام ١٨٨٢م فقد ازداد عدد التجار ورجال الأعمال والمهندسين الأمريكيين في الشرق، وتوسعت

المصالح الأمريكية إلى حدّ كبير، ومنذ ذلك التاريخ استطاعت الولايات المتحدة بسياستها الاستراتيجية الأكثر بعداً، والأنجح تخطيطاً، أن تجد لنفسها شريكاً يخدمها، وفي نفس الوقت لا يمكن أن يشكل خطراً على مصالحها في المنطقة، ويمكنها أيضاً استخدامه ضد بقية الدول الأخرى -عندما تدعو الضرورة إلى ذلك- حتى وإن كانت من حليفاتها عندما تتعارض مصالحها معها، وهذا الشريك هوالحركة الصهيونية العالمية، وراحت الأوساط السياسية الأمريكية منذ ذلك التاريخ تنفخ بكل ما لديها من قوة في بوتقة اختراع وخلق قومية ليس لها وجود في التاريخ هي بدعة "القومية اليهودية" والتي انتهت بخلق واختراع كيان استيطاني في قلب الشرق العربي لا شبيه له في التاريخ والنشأة، والأيديولوجية والتكوين، إلا الولايات المتحدة الأمريكية نفسها.

مصادر ومراجع البحث

المصادر والمراجع العربية:

١- أنطونيوس جورج: **يقظة العرب**، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٦م.

٢- بريسون. أ. توماس: **العلاقات الدبلوماسية الأمريكية مع الشرق الأوسط من ١٧٨٤ إلى ١٩٧٥م.**

٣- بيهم محمد جميل: **العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب**، بيروت المطبعة الوطنية ١٩٦٨م.

٤- الحكيم يوسف: **سورية والعهد العثماني**، بيروت، دار النهار، ١٩٨٠م.

٥- **حوادث ١٨٦٠م في لبنان ودمشق**، لجنة بيروت الدولية، المحاضر الكاملة ١٨٦٠-١٨٦٢م، ترجمة أنطون حنو، بيروت، ١٩٩٦م.

٦- حوراني البرت: **الفكر العربي في عصر النهضة**، ترجمة كريم عزقول، بيروت دار النهار ١٩٦٨م.

٧- ريجينكوف.م. وسميلينسكايا: **سورية ولبنان وفلسطين في النصف الأول من القرن التاسع عشر**

٨- **مذكرات رحالة- تقارير علمية وصادية**، ترجمة يوسف عطا الله بيروت ١٩٩٣م.

٩- زريق مزدريك: **نهضة العرب**، دمشق، مطبعة ابن خلدون ١٩٤٩م.

١٠- زين نور الدين زين: **نشوء القومية العربية**، بيروت، دار النهار ١٩٦٨م.

١١- سلطان علي: **تاريخ سورية ١٩٠٨-١٩١٨م نهاية الحكم التركي**، دمشق طلاس للدراسات والترجمة والنشر.

١٢- طلس محمد أسعد: **تاريخ الأمة العربية** ترجمة وعصر الانبعاث بيروت ١٩٦٣م.

١٣- عازوري نجيب: **يقظة الأمة العربية**، ترجمة أحمد بوملحم، بيروت المؤسسة العربية للدراسات.

١٤- عتريسي طلال: **البعثات اليسوعية- مهمة إعداد النخبة السياسية في لبنان**، الوكالة العالمية، ١٩٨٧م.

١٥- غرايبة عبد الكريم: **سورية في القرن التاسع عشر**، القاهرة، ١٩٦٢م.

المصادر والمراجع الأجنبية:

1. ЦГИА. Рукописи синода. Ф.834. оп. 4. ЕД. ХР. 934.
2. Богословские труды. N20. 1979. с. 15.
3. Маркс К., Энгельс Ф. Соч. т. 10. с. 17.
4. Дмитриевский А.А. Православное Палестинское Общество и его деятельность за истекшую четверть века (1882-1907гг.). СПб. 1907. с. 220.
5. Там же. с. 220.
6. Хитрово В.Н. Православие во Святой Земле. „Православный Палестинский Сборник." т. 1 вып. 1 СПб. 1881. с 81-83.
7. Русская дипломатия и Российское Императорское Православное Палестинское Общество. По материалам АВПР. Дипломатический Ежегодник. М. Межд Отнош. 1992. с. 258.
8. Православный Палестинский Сборник 1882-1992. Вып. 31. М. 1992. с. 120.
9. Русская дипломатия и Российское Императорское Православное ... с. 260.
10. Никонов А. Бюджеты Западной Европы в России. 1911. с. 237.
11. Там же с. 242.
12. „Прибавления к Херсонским Епархиальным Ведомостям." 1883. N18 с. 869-870.

13. „Виссарион". 1900. №49-50. с. 534-535.
14. Там же с. 591.
15. Православный Палестинский Сб. с. 108.
16. Дмитриевский А. А. Православное... с. 241.
17. Там же с. 265-266.
18. „Церковный Вестник." 1885. №22. июнь. с. 360.
19. „Труды КДА". 1907. май. с. 105.
20. Елисеев А. В. Путь к Синаю 1881. „Православный Палестинский Сб." т. II. вып. 1. СПб. 1883. с. 15.
21. Православный Палестинский Сб. с. 113.
22. „Церковный Вестник". 1888. №2. янв. с. 25-26.
23. Прибавления к Церковным Ведомостям. 1888. № 16. с. 447-448.
24. Церковные Ведомости. 1888. № 31. 32. июль. с. 199.
25. Православный Пал. Сб. с. 116.
26. Церковный Вест. 1889. №26. июнь. с. 461-462.
27. Там же с. 462.
28. Свящ. Симеон Покровский. О современном состоянии православия и иноверной пропоганды во Святой Земле. Астрахань. 1900. с. 15-22.
29. Суворин А. А. Палестина. С-П. 1898. с. 298-299.

30. Сообщения Православного Палестинского Общества. т. VII. СПб. 1897. с. 139.
31. Там же. т. VIII. СПб. 1898. с. 10.
32. Там же. т. IX. СПб. 1899. с. 664.
33. Оде-Васильева К.В. Взгляд в прошлое. Пал. Сб. М.-Л. 1966. вып. 13(76). с. 175.
34. Православный Пал. Сб. с. 110.
35. Там же.
36. Там же. с. 111.
37. Там же.
38. Книга житий святых. Месяц июний. Дня 24. Киев. 1875. с. 75.
39. Православный Пал. Сб. с. 112.
40. Там же с. 120.
41. Каптерев Н.Ф. Сношения иерусалимских патриархов с русским правительством в XIX-столетии. Православный Палестинский Сб. т. XV. вып. 3 СПб. 1898. с. 637.
42. Православный Пал. Сб. с. 121.
43. Там же.
44. Там же. с. 122.
45. Там же.
46. Там же.
47. Там же.
48. Там же.
49. Там же. с. 123.
50. Палестинский Сб. N13(76). 1965. с. 175.

